

# سُورَةُ الْكَهْفِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ  
عِوَجًا قَيِّمًا: لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا لِمَنْ لَدُنْهُ. وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ  
الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ. أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا. } أَهْدَاهَا

مواظظ هأم آداب عالية  
إيمان فضائل اجتماع  
رسول شامل لسوالاتنا ومجدها

بقلم عبد الحميد حجازي  
كاتبة مقراة السيدة زينب  
حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

# فهرس الكتاب

## فهرس

| صفحة | الموضوع                      | صفحة | الموضوع                         |
|------|------------------------------|------|---------------------------------|
|      | إسباغ نعم الله على الخاضعين  | ٢    | الاهداء                         |
| ٢٥   | لعزته                        | ٣    | مقدمة                           |
| ٢٦   | تجلى قدرة الله               | ٦    | الباعث على وضع هذا الكتاب       |
|      | تفضل الإله بإطلاع عباده      | ٧    | حمد الله تعالى ذاته             |
| ٢٧   | على قصة أهل الكهف            | ٧    | بعض صفات الرسول                 |
| ٢٩   | وصف عقيدتهم                  | ١٠   | صفة القرآن                      |
|      | تقرير أن هدى المؤمنين في     | ١١   | إنذار عام                       |
| ٣٠   | ازدياد                       | ١٢   | الشق الأول من مهمة الرسول       |
| ٣٠   | تتابع النعم على المؤمنين     | ١٣   | » الثاني »                      |
|      | الأسباب التي من أجلها استحق  | ١٧   | جهل المذنبين بما نسبوه إلى الله |
| ٣١   | أصحاب الكهف التكريم          | ١٨   | شناعة ما تفوهوا به              |
| ٣٢   | قوة إيمانهم وتسفيهم للشركيين |      | تصوير حالة الرسول إزاء          |
|      | تهكمهم بمن يتخذوا آلهة من    | ١٨   | جموح المنشقين                   |
| ٣٣   | دون الله                     | ٢٠   | تصوير حالة الدنيا               |
|      | تدليلهم على أن المشركين      |      | المصير المحتوم للأرض            |
| ٣٣   | لا يعتمدون على حجة           | ٢٢   | الدينية                         |
| ٣٤   | عودهم بالتأنيب على المشركين  | ٢٣   | آيات أصحاب الكهف                |
|      | إيثار المؤمنين اعتزال من     | ٢٤   | إيثار المؤمنين دينهم الخ        |
| ٣٥   | يخالفون عقيدة التوحيد        |      | تعطش المؤمنين إلى طلب           |
| ٣٥   | الدعوى إلى تجنب الأشرار      | ٢٥   | المزيد من الرشد                 |

| الموضوع                         | صفحة | الموضوع                           | صفحة |
|---------------------------------|------|-----------------------------------|------|
| حماية الله للذين يستجيبون له    | ٢٦   | آيات توضح حقيقة ماخفي             | ٥٦   |
| حال الفتية في الكهف             | ٢٦   | أمرهم                             | ٥٦   |
| إلفات إلى ما انطوت عليه آيات    |      | تقرير أن شيئاً لا يتم بغير        |      |
| أهل الكهف من قدرة الله          | ٢٧   | مشيئة الله                        | ٥٩   |
| تقرير أن الهادي هو الله وحده    | ٤٢   | علاج من نفس الاستثناء             | ٦٠   |
| نماذج من آثار قدرة الله         | ٢٣   | مطالبة العباد بالتطلع دائماً      |      |
| إحاطة الهيبة بأصحاب الكهف       | ٤٥   | إلى هداية الله المتجددة           | ٦١   |
| هيمنة القدرة على شئون الحياة    | ٤٧   | بيان المادة التي مكثها أهل الكهف  | ٦٢   |
| البحث في شأنهم بعد اليقظة       | ٤٨   | إلفات الناس إلى أن الله وحده      |      |
| تفويض جميع الأمور إلى الله      | ٤٨   | غيب السموات والأرض                | ٦٣   |
| تقرير أن التزود لا ينافي التوكل | ٤٩   | من صفات الوحدانية                 | ٦٤   |
| تجنب أصحاب الكهف المسالك        |      | إلفات الناس إلى أن لا مفر         |      |
| التي تسي إلى عقائدهم            | ٤٩   | لهم من خالقهم                     | ٦٥   |
| كشف أمرهم الخ                   | ٥٠   | الأسباب الموجبة للبشارة           | ٦٦   |
| اختلاف الرأي في شأنهم           | ٥٠   | تقرير أن المصير إليه تعالى        | ٦٦   |
| اتخاذ قبورهم رمزاً للعبادة      | ٥٢   | منزلة الموحدين عند الله           | ٦٧   |
| الاختلاف في عددهم               | ٥٣   | تقرير أن المؤمنين هم المثل الأعلى |      |
| بيان أسمائهم                    | ٥٤   | من علامات التأثر بالدنيا          | ٦٨   |
| النهي عن التعمق في المجادلة     |      | مصاحبة الأشرار                    | ٦٩   |
| فيهم                            | ٥٥   | الحكم على الأشرار بالغفلة الخ     | ٧٠   |

| الصفحة | الموضوع                         | الصفحة | الموضوع                     |
|--------|---------------------------------|--------|-----------------------------|
|        | تقرير أن قوى البشر أداة         |        | الدرس الثالث - ترميم الجدار |
| ١٦٠    | لتنفيد إرادة الله تعالى         |        | حرض البخل ، وصفاته          |
|        | تدليل ذو القرنين على أن         | ١٢٧    | الذميمة                     |
|        | شأننا من شئون البشر لا يتم      | ١٢٩    | سمو أخلاق الأنبياء          |
| ١٦٢    | إلا برحمة الله                  |        | اتجاه رأى موسى نحو تطبيق    |
| ١٦٤    | البعث العام - العالم في الآخرة  | ١٤٠    | قاعدة مقابلة الصنيع بمثله   |
|        | حالة المنذرين بعد البعث         | ١٤١    | نهاية صحة موسى والنضر       |
| ١٦٥    | ومصيرهم                         | ١٤٢    | أهداف الوقائع الثلاث        |
|        | تقرير أن من أخبث العوامل        |        | تقرير أن عمل النضر ليس      |
| ١٦٧    | المفضية إلى العذاب تأليه العباد | ١٤٤    | صادراً عن هوى               |
|        | بيان من يضفى على عمله القبيح    | ١٤٦    | آيات ذى القرنين - عظات      |
| ١٦٨    | صفة الحسن                       |        | التاريخ                     |
| ١٧١    | مصير من هذا شأنهم               | ١٥٠    | تحليل نفسية المؤمن الذى لم  |
| ١٧٢    | منزلة المبشرين فى الآخرة        | ١٥٢    | يطغى ملك الدنيا             |
|        | آيات الختام - وصف كلمات         |        | جهاد ذو القرنين             |
| ١٧٤    | الله                            | ١٥٤    | الدواعى المفضية إلى التعذيب |
|        | تقرير أن مهمة الرسل             | ١٥٥    | فى الحياتين                 |
|        | الدعوى إلى الوحدةانية           |        | من مظاهر التمسكين لذى       |
| ١٧٥    | والعمل الصالح                   | ١٥٩    | القرنين الخ                 |
|        |                                 |        | عدم اغترار ذو القرنين       |
|        |                                 |        | بالقوة المادية              |

### ( وقع )

في السطر ٢ الصفحة ١٠٩ فيذوقوا بدون واو خطأ  
وفي » ٧ » ١٤٥ دارة بزيادة ألف بعد الراء »  
وفي » ٢٢ » ١٦٩ بلغات بباء بدل التاء »

وأيضاً وقعت أخطاء في ثانيا الطبع من هذا القبيل لا تغيب على فطنة  
القارى . وقد اكتفينا بهذه الإشارة للتنبيه



## سُورَةُ الْكَهْفِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ  
عِوَجًا قَيِّمًا: لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا لِمَنْ لَدُنْهُ. وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ  
الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا: } أَهْدَاهَا

مواظظ حكم آداب عالية  
إيمان فضائل اجتماع  
رسول شامل لسور الانسانية ومجدها

بقلم عبد الحميد حجازي  
كاتبة مقرأة السيدة زينب  
مُحَقَّقُ الطبع محفوظة للمؤلف

إدارة الطباعة والمكتبة المنيرية  
رأصحابها

أولاده محمد منير الدسوقي السلفي  
بشاع الشيخ محمد عبده درر الأثر كرم خلف الجامع الأزهر



## إلى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ « عبد الله المراغى »

لقد درج المؤلفون على اختيار شخصيات بارزة في الفن الذى يطرقونه  
ليهدوا إليهم مؤلفاتهم ، سعياً وراء اكتساب ثقة الناس بما ينشرون  
عليهم . وإنه لتنازل كريم من هذه الشخصيات تقبل الإهداء ، وتواضع  
فيه معنى المساعدة والعون ، يستحقون عليه الشكر والثناء .

وعلى ذلك رأيت أن أهدى هذا الكتاب إلى شخصية مرموقة كريمة  
المحتد ، نبيلة المنحدر ، أكسبها العلم هبة ووقاراً ، وأحاطها المدين بهالة من  
الخلق الرفيع والآداب العالية .

ويكفى أن يعلم الناس أنه فرع من الدوحة المراغية الفينانة ، التى امتد  
ظلالها العلى فى أرجاء المعمورة ، واتقتلف القاصى والدانى من ثمارها . وطافوا  
حول مائدتها يتغذون ويتمتعون .

أقول : يكفى أن يعلم الناس ذلك ، ليلسوا أى نخر أعز به حينما أتقدم  
إلى فضيلة العالم الجليل الشيخ ( عبد الله المراغى ) مدير قسم المساجد  
بوزارة الأوقاف بإهداء هذا الكتاب . ولولا ثقى فى سمو أخلاقه ، لمنعنى  
الحياء أن يتقدم ضحيف مثلى إلى عظيم مثله بهذا الإقدام الجرىء .

وليس فى وفاضى إلا الضراعة إلى المولى جل وعلا أن يطيل بقاءه

ويحسن انضيلته الجزاء م

## مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي هدى برحمته العباد سواء السبيل ، والصلاة والسلام على النبي المصطفى للرسالة العظمى الخالدة ، التي عبدت للناس مناهج الرشاد ، والسعادة في الدنيا والآخرة ، وعلى آله وأصحابه ، ومن تأمى خطواتهم إلى يوم الدين .

وبعد ، فإن القرآن الكريم ، هو الوسيلة المتينة التي ارتفعت بالإنسانية إلى أرقى مدارج السمو والعزة ، ونحت عن الدنيا تلك الستر الكثيفة التي حجب عنها ردها من الدهر معالم الفضيلة والاستقامة ، فظلت تتعثر في معاطب الروح والجسم ، تتناوشها الأخطار العاتية من كل ناحية ، فلا تكاد تفيق من غاشية حتى تصدمها جانحة ، وهكذا أخذت تظلم ، وتترنخ في مهامه الفوضى والردائل : بين أسنة مشرعة ، تسيل على حدها دماء بريئة ونفوس طاغية تلبظ شرها واستبداداً ، وعادات تمجها الطباع المتمدنة ، إلى ضروب لا تحصى ، انحدرت بالأخلاق والعقائد إلى الحضيض ، مما سجله التاريخ شاهداً على أخط ما تحيى فيه أمم فقدت اعتبارها الأدبي والاجتماعي ، وضحت بمقوماتها الخلقية والعلمية على مذبح الشهوات والأهواء .

فلما أراد الله جل شأنه ، وهو الرحمن الرحيم ، أن ينقذ عباده ، من شرور المفاسد والآثام . ويحفظ للإنسانية كيانها من الانهيار ، بعث ( محمد ابن عبدالله ﷺ ) بالقرآن العظيم ، فكان معجزة أى معجزة ، تأثرت بها

نفوس أقوام شاردة . استعصوا على الرضوخ ، لأطغى الطغاة ، وتمنعوا  
على الانتقياد . ولم يلوهم عما ألقوه رغبة ولا رهبة . وانهمروا كالسيل ،  
يجرفون كل من يحاول التصدى لعاداتهم ، بل وكانوا يعتبرون كل محاولة  
لإلفاتهم عما اطمأنت إليه أهواؤهم إصرأ لا يظهره إلا الحسام .

بيد أن رسول الله ﷺ ما كاد يتلو على أسماعهم آيات ربه الأعلى ،  
حتى هفت نفوسهم خاشعة . وأهبطت أعناقهم خاضعة . واستسلموا  
طائعين متبتلين .

فالقرآن الكريم بروحانيته وجلاله ، قد نضا عن العالم كلك الجاهلية  
الفاسدة . وجلى في الأرجاء شمس المعارف والإيمان ، ولا أكاد أتصور  
ماذا كانت عليه حالة الدنيا ، إذ لم يكن النبي ﷺ ، بعث لهداية العالم ، وهل  
كانت تبلغ من المدنية والحضارة ، ما بلغته في هذا العصر ، وما سبقه ، وما  
يليه . تحت ضوء القرآن ورشاده ؟ وأي ضلال ترتضيه الإنسانية لنفسها ،  
أن تنحرف عن الجادة التي وجهها إليها خالقها الحكيم ، اللهم إلا أن تكون  
قد ارتكست من جديد في حمأة الشرور الهدامة ، تلك التي تخلص منها  
جدودها القدامى (١) ، وأوصلوا إليها الحياة ، في مسوح التقوى والورع  
والاعتدال ، في نفوس أبية ، وقلوب زكية خاشعة ، في إيمان خالص لله  
رب الأرباب .

فاللهم ضراعة إليك ، يا من أنت وحدك ، غافر الذنب ، قابل التوب ،  
شديد العقاب ، أن تنقذ العالم ، بما أنقذته به ، وهذه الوسائل قائمة ، وإليك  
سبحانك الأمر من قبل ، ومن بعد .

---

(١) أعني الذين بعث النبي صلى الله عليه وسلم بين ظهرائهم .

## الباعث لى على وضع هذا الكتاب

هذا ، وإن الباعث لى على التصدى لهذا الأمر الخطير ، هو ما درج عليه المسلمون فى الدولة المصرية ، منذ عهد ليس بالقريب ، من تلاوة ( سورة الكهف الشريفة ) قبل الصلاة من يوم الجمعة ، فى المساجد التى تؤدى فيها هذه الفريضة . وذلك لايخلو من حكمة ، وليس هو محض اتفاق للتسلية ، وقتل الوقت ؛ فالنفوس أصفى ما تكون عند ما تتجرد لعبادة خالقها ، والقلوب أخشع ما تكون حينما تتقرب إلى المولى تعالى ، والصلاة هى الساحة العلوية التى تتجلى فيها على قلب المؤمن فيوضات القدس ، وتكتنفه روحانية الملإ الأعلى ، وترتفع به عن الرواسب السفلية ، فيخلق فى آفاق الطاعة الإلهية ، والسمو النفسانى ، والكمال الخلقى ، والمجد الإنسانى ، والرفعة والنزاهة والإباء ، وما إلى هذه المقومات التى تنأى بالمرء عن كل ما يحيط بمكانته كإنسان حظى بشرف المخاطبة من لدن « الله » .

وإذا كانت هذه حالة المصلى ، فأى غم يظفر به إذا تليت عليه آيات ربه ، وهو ينتظر الصلاة ؟ أحسب أن الدنيا بمباهجها وزخرفها تتضائل فى نفسه عن لحظة يقضيها فى هذه الساحة المقدسة ، وإن شيئاً لا يقوم بطرفة عين بمضيها بين الإصغاء لقرآن يتلى ، وصلاة تنتظر .

لذلك رأيت أن أنتهزها فرصة ميمونة لحديث اجتماعى ، متبركا بآيات سورة الكهف على رأس كل حديث . كى يلم المصلون ببعض ما تنطوى عليه هذه السورة من توجيهات سامية ، تبلغ بالإنسانية إلى أرفع درجات العزة والفضيلة ، وينصتون إلى آيات يدركون أهدافها ومراميها ، فيزدادون بصيرة ومعرفة ، ولا يكون كل ما يستبضعون ، الإعجاب بصوت القارىء ،

ورقة جرسه ، فإن لم يكن صوته كذلك انصرف كل ، ينتاب نفسه مايساورها  
من منازع الحياة ، وشواغلها .

وإننى لست بسبيل وضع تفسير لهذه السورة ، كهذه التفاسير التى  
تحلل الآيات تحليلا لغويا ، من إعراب ، وتوجيهات نحوية ، وما إليها ،  
فهذه مهمة جليلة أداها أئمة الدين ، من أساطين العلم على أكمل وجه ، وهذه  
تفاسيرهم تزخر بها المكتبات ، ولكننى بسبيل إبراز النواحي الاجتماعية  
فى الآيات ، فإن كنت وفقت فذلك فضل الله وعونه ، وإن كانت الأخرى ،  
فخسبى حسن مقصدى ، وما أنا إلا عبد ضعيف ، يرجو من خالقه  
المغفرة ، وحسن الثواب ؟

عبدالمجيد مجازى

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حمد الله تعالى ذاته على إنزال القرآن هداية للعباد

---

## الحمد لله

---

لله ما أروع هذا الحمد العظيم من رب الأرباب ، لذاته المقدسة وما أجمل وقعه في نفس المؤمن المتأمل في جلال آيات القرآن الكريم ، وما تضيفه على النفوس الصافية ، والقلوب الزكية من فيوضات ، تجتذب الإنسان من رواسب المادة ، إلى ساحات الحضرة الربانية ، في سبوحات العبودية ، وتحليات الحقائق الصمدانية ، في لحظات فناء الأشباح ، وفي ديمومة خلود الأرواح .

أجل ! لقد تفضلت يارب على عبادك بالهداية من مخاطر الفوضى ، ومعاطب الرذائل ، فلك ذلك الحمد المقدس ، الذي حمدت به ذاتك الأعلى ، وأي نعمة أسبغتها على عبادك ، بما تفضلت به عليهم ، من إنزال الهدى ، يشع من ضوء القرآن .

بعض صفات الرسول

---

## الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ

---

( محمد ﷺ ) هذا الرسول المجتبي لهذه الرسالة ، كان المثل الأعلى في الأخلاق العالية ، والآداب السامية ، أدبه ربه ، فأحسن تأديبه . ما كان فحاشاً ، ولا سباباً ، ولا طاعياً ، ولا متكبراً ، ولا غضوباً إلا لله ، بل كان

كرىما ، مهيب الطلعة فى تواضع ، عظيم النفس فى إيمان ، لا یرد سائلا ، ولا یفسو على متناول مالم یمس حقا من حقوق الله ، يأمر بالعرف ، ویرض عن الجاهلین ، یؤثر على نفسه ، ولا ینغمس فى النعم (١) ، ویمیل إلى حیاة الزهد ، والدنیا فى قبضته ، والسماء لا ترد له دعاء ، لا یستبد برأى ، ولا ینكر صالحا ، فكم أقر للقوم عادات ، ووجههم إلى ما یجهلون من محاسنها ، لا یقرب وجیها لوجهته ، ولا ینحى فقیرا لفقره ، یتكلم فى جلال ، ویصنى فى وقار ، یرحم الصغیر ، ویوقر الکبیر ؛ هذه قطرة من یم ، من خلال سید البشر ﷺ ، فهو معدن البر ، ومنبعه الصافی ، حتى كان بین قروم العرب وسادتهم ، وهم مام شکمة صارمة ، وعصیة جاحمة ، کالمصباح یضئ الظلم ، فأدنوه من نفوسهم ، وآثروه على فلذة أكبادهم ، واقتدوه بأبائهم وأمهاتهم ، وكان إذا استضيف صاحب الدار ، وإذا ادلهم الخطب محل الرجاء ، وإذا عمیت الحقائق منار البصائر والأبصار ، وإذا ضل بالقاصی السبیل ، كان هدیه نعم الدلیل . اللهم صل وسلم على هذا النبی وإخوانه شמוש المعارف ، وقادة العالم وهداته ، صلاة وسلاما دائمین ، متعاقبین ماتناوب الملوان ، وکر الجدیدان .

هذا نموذج مصغر من خلال رسول الإسلام الذی أخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربه ، ولیكون قدوة للعالم .

## الکتاب

لاجدال فى أن المرء أسیر أهوائه . وملاذه ، فإذا أرخى له العنان ،

(١) لقد دلت التجارب على أن الانغماس فى النعم یفتح على الإنسان أبواب الشرور التى منها الركون إلى مظاهر الدنیا ، والانصراف عن الاهتمام بشئون الآخرة .

ولم تحد حرите الجائحة ، ونزاوته المتوثبة ، شرائع وقوانين ؛ فإنه يضل السبيل ، وترتبك نظم الاجتماع ، وتختل موازين الأمن ، وتحل الفوضى ، وتنقسم عرا التآخى ، وتتمزق وشائج التآزر والتعاقد . لذلك كان من رحمة الله بالعباد وتفضله عليهم بالهداية والفلاح ، أن أوحى من لدنه سبحانه كتباً ، جمعت أركان التعبد ، وفنون العلوم والآداب ، وسياسة المال والاجتماع ، صورت الفضائل في أروع مجاليها ، ودعت إليها ، وهتكت الرذائل في أبشع مبادئها ، وحذرت مغبتها ، وعلى ضوء كتب السماء سار المجتمع بخطوات منزنة ، واستنبط العلماء منها للناس ما يحتاجون إليه في حياتهم الدنيا من عبادات ومعاملات ، وحكمة من علام الغيوب أن أوحى كتبه لتخاطب جميع العقول ، وتلائم مختلف الطبائع ، ولتكون مادة ثمينة لدعاة الإصلاح ، بما توجه إليه من امر ونهى ، والاسترشاد بتعاليمها ، في كل حالة تعرض للإنسان من خير وشر . وإمام كتب السماء جميعاً هو القرآن ﴿ ذلك الكتاب الكامل ، الحقيق بأن يخص به اسم الكتاب ، لغاية تفوقه على بقية الأفراد ، في حيازة كالات الجنس ، كأن ماعداه من الكتب السماوية ، خارج منه ، بالنسبة إليه (١) ﴾

فهو وإن كان خاتم الكتب ، إلا أنه الأصل ، تفرعت عنه أولاهها ، وهو لمنزلة العالية حوى علوم العصور وتواريحها (٢) ، لأنه الكتاب الذى ادخره الإله الحكيم ، ليهدى به العالم ، ويكتب له الخلود . وأيم الحق ، فإن من يتأمل في هذا الكتاب الإلهي ، لا يمكنه مهما قسا قلبه إنكار أنه وحي السماء ، في نظمه حكمة وروعة ، وفي تشاريعه تهذيب وتوحيد وثقافة .

(١) ماين الفوسين مأخوذ من تفسير العلامة أبي السعود

(٢) إنه على رغم العلوم التى استنبطت من القرآن الكريم ، فهو هوالم يسر له غور ، ولم يكشف عنه تقاب ، إلا بالقدر الذى يحتاج إليه العالم ، حسب الظروف والملاسات ، وتطور العصور .



وأخيراً ماذا نبليغ في وصف القرآن بعد حمد الله سبحانه ذاته ،  
على إنزاله هدى وإرشاداً .

### صفة القرآن

وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا

﴿ أى شيئاً من العوج بنوع اختلال في النظم ، وتناف في المعنى ، أو  
انحراف عن الدعوة إلى الحق ﴾

### قيماً

﴿ بالمصالح الدينية والدنيوية ، على ما ينبيء عنه ما بعده من الإنذار والتبشير  
فيكون وصفاً له بالتكميل ، بعد وصفه بالكمال ، أو على ما فيه من الكتب  
السمائية ، شاهدأ بصحتها ، وممهناً عليها ، أو متناهيأ في الاستقامة ﴾  
وهذا السياق الحكيم والوصف الرائع لكتاب الله ، يهيء العقول  
السليمة ، ويفتح مغالق القلوب لتلقى ما يتلوه من آيات ترتبط بوحداية الله  
المقتدر القيوم ، وآيات ترتبط بالأخلاق الفربية والاجتماعية ، وآيات ترتبط  
بشئون الدنيا ، وما يلزم الناس أن ينهجوا فيها ، وآيات ترتبط بشئون الآخرة  
وما يحذر بالعتلاء أن يتبعوه ليصاوا إليها سعداء مكرمين

وعند ما تنهأ العقول لذلك ، فإن شيئاً مهما كان عنيفاً مجلجلاً ، لا يقوى  
على أن يزعزها عن التعمق والتروى . فيما سيتلو هذا التمهيد من دعوة ،  
تضامل إزاءها كل حوافز الجسم ، ودوافع المادة ، ويتصام إلا عما هو  
بسيّله من الاستقامة ، حتى يبلغ الغاية ، وتتكشف له آفاق الهدى ، ويفعم  
قلبه يثميناً وإيماناً ، ووحداية وعلماً ومعرفة . فلا يرتاب عاقل والحالة هذه

في أن القرآن قد أضاء سبل الحياة ، ، ودعم ممسكات الوجدانية ، وشيد  
قوانين الخلق ، ونفض الشوائب الخبيثة عن نظم الاجتماع .

إنذار عام

لِيُنْذَرَ بِأَسَا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ

يعلم المتأمل في كتاب الله أن مهمة الرسول ذات شقين : ( الإنذار ،  
والتبشير ) . وقد التزم النظم الكريم في سردهما طريقة تعليمية ناجحة في  
تهذيب البشرية ، وثقيفها ، وذلك حسبما يقتضيه المقام ، وما يناسب تنبيه  
العقول ، وإيقاظ المشاعر ، فتارة يسوق الإنذار مفصلاً ، حسب الدواعي  
التي تقتضيه ، وتارة يحمل ليلفت الأذهان أولاً ، ويعد القلوب ، لما يعقب  
هذا الإجمال من التفصيل ثانياً . وفي هذا من التشويق البليغ ما ينقطع دونه  
الحجاج ، ويذوب في روعته اللجاج .

وهذا الإنذار العام ، تنخلع له نفوس العقلاء هلعاً ورعباً ، ويدبر  
المبصرون لا يلوون على شيء ، فراراً بما يتأدى إلى تطبيقه عليهم ، وكأن  
صوت العقاب الهائل ، يجلجل في أسماعهم إن هجست نفوسهم بهواتف  
الهوى ، ونزق الآثام .

فالويل لمن يعمى عن هذا الإنذار ، وخسرت صفقته ، وغبن غادياً  
ورائحاً ، ماذا ربح من قر في أذنيه ، وغشاوة على بصره ، فلوى عنقه عن  
الاستقامة التي تعبد مسالك التقوى ، وتفسح مجال السعادة والسلام ،  
حسب هذا الشرير تفاهة وشقاء أن إنذار السماء يلبيه ، ويلهب ظهره دائماً  
بالبأس الشديد ، والعذاب الآليم ، من قبل شديد المحال .

### الشع الأول من رسالة الرسول

وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا  
حَسَنًا مَكْشُورًا فِيهِ أَبَدًا

لمست في الإنذار السابق عنف العقاب الهائل الذي ينتظر المذنبين ، وإنك لتلصق في هذه البشارة معنى التكريم والرضا ، مما يجعل العقلاء يحرصون على المثوبة التي تتوقف على العمل الصالح ، الذي سيوضح التنزيل الكريم حدوده ، فيما يلي .

وفي الواقع فإن المؤمن الذي يسلم وجهه لرب الأرباب ، ويسير على سنن التعاليم التي قضاهما الإله المطلق على السرائر ، فإنه يكون مثلاً أعلى في سمو الإنساني ، والخلق النليل ، والضمير الحي ، والحجى والكرم والجلود والنساح والرجولة ، والشهامة والنجدة .. الخ ، يؤدي ما عليه الله من صلاة وصيام وحج (١) . ويؤدي ما عليه الله وللمجتمع من زكاة وصدقات ، يكون بمظهره الخارجى - أى علانيته - فى كنف من الطاعة والتقوى ، ويكون بمكنونه الداخلى - أى سريره - فى ريبته من العقيدة والإيمان ، فلا يقصر فى حق من حقوق مولاه ، ولا يفرط فى حد من حدوده تعالى ، ولا يتهاون فى واجب عليه للناس ، فلا يظغى ، ولا يستبد ، ولا يريق دماً بريئاً ، ولا ينتهك عرضاً ، ولا يثلم حرمة ، ولا يغتصب ما ليس له ، ولا يتناول خمرآ أو يدمن مخدرآ . ولا يزاول ميسراً ، أى لا يظلم نفسه ، ويفر من المنكرات

(١) ليس المقصود من العبادة مظهرها الخارجى وحسب ، بل هى الى جانب ذلك هدف ممنوى كريم ، قرره الكتاب العظيم ، فى آيات عزيزة ، كتوله تعالى : « ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » .

فراراً ، موقناً أنها جالبة لسخط الله ، ومن سخط عليه الله هلك ، وضل  
ضلالاً بعيداً ، ومن رضى عنه سما ، وفاز فوزاً عظيماً .  
وهو بذلك يحفظ لنفسه وللإنسانية المقومات التى تكفل حياة السعادة  
والرفه والكمال . ويدرك عنها الأسباب المفضية إلى الفوضى والشقاء ؛  
مدركاً أن غاية الاستقامة حتماً المكث الدائم فى جنات النعيم .  
فهل وراء ذلك مطمح لذى بصر . أو مأمول لذى حجب ؟  
إن من يتنسم هذا الفضل الربانى ، لا يفتأ مهرولاً غير مهبور ، ولا  
ظالع ، حتى يبلغ آخر المطاف ، أسعد ما يكون نفساً ، وأهنأ ما يكون  
قلباً ، وأفرح ما يكون ظاهراً ، لا ينال منه نصب ولا عناء .  
يمثل ذلك أصدق تمثيل قوله تعالى : « طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ،  
ومن أعرف لحالقه منه ﷺ » ، ومن أدرك منه لما أعده المولى سبحانه  
 لعباده البررة الاتقياء ، فاستهان بعناء الجسم فى سبيل الوصول إلى هذه  
الغاية السامية .

### النقطة الثانية من مهملة الرسول

---

وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا

---

بعد الإشارة إلى البأس الشديد الذى ينطوى عليه الإنذار ، ليجتاح  
الإنسان لنفسه ، ويتجنب المزالق التى تعرضه لأخطر ألوان العقاب ،  
أخذ فى بيان الأسباب التى يترتب عليها تطبيق ذاك الإنذار الشديد  
( أى وينذر من بين سائر الكفرة هؤلاء المتفوهين بمثل هاتيك العظيمة  
خاصة ، وهم كفار العرب الذين يقولون : الملائكة بنات الله تعالى ،  
واليهود القائلون : عزير ابن الله ، والنصارى القائلون : المسيح ابن الله )

ولقد رد الله تعالى على جميع هذه الطوائف رداً لا مجال بعده لمقاتل  
وفي الحق فإن المنذر نوع من المخلوقات ، لا أدري أنتطبق عليه الصفة  
الإنسانية المفكرة ، أم الحيوانية اللا مفكرة ، إذ قد بلغ النهاية القصوى في  
الضعة ، وانحدر إلى أحط مهاوى السفالة والامتهان ، وإذا كانت الرذائل  
كثافة ظنانية تغشى الروح ، فتحجب عن التبصر والهدى ، فكيف بالكفر  
وهو مصدر الشرور ، وأصل الجرائم ، ومنبع المفاسد ؟ .

الكافر شخص مادي بأوسع معاني هذه الكلمة ، لا يؤمن إلا بالماديات ،  
ويرجع هذا إلى اعوجاج في الطبع ومرض في القلب ، وقصور في القوى  
العاقلة ، أضعف سلطة الروح ، ويمكن للجسم من الهيمنة على المقومات  
الإنسانية ، فتأدى ذلك بالكافر إلى إنكار كل ما يتعلق بالغيب ، ولودات  
عليه المرتبات المحسة ، فلو أخبر بأن السماء تزخر بمخلوقات نورانية ، أو من  
أى عنصر كان ، وأنها تشبه المخلوقات الأرضية ، أو تخالفها لم يستطع عقله  
هضم ذلك ، بل ويذهب إلى أقصى حدود الغياء ، فيسخر من هذا الخبر ،  
ويظنه ضرب من الأساطير ، فإن واته فرصة النظر في إحدى المراصد  
الضخمة ، بعيدة المرمى نحو السماء ، ووقع بصره على إحدى هذه الكواكب  
التي توصل العلواء إلى اكتشافها - كالمرج مثلاً - فإنه يقر بوجوده ، يده أن  
مشاهدته الحسية ، لاتعفيه من تحكم المادية في قواه العاقلة ، المودعة فيه ،  
فإذا أخبر بأن الإله الذى أبدع هذا الكوكب الهائل ، أو ذاك ، ومن عليه ،  
هو الإله الذى أبدع الكوكب الأرضى ، ومن عليه ، فإنه مع ثبوت هذا  
الدليل المادى على وجوده تعالى ووحدانيته ، فلا يلبث أن تبرز في مخيلته  
مؤثرات لغرائز الجسدية ، ومن ثم يرجع في ذهنه الكفر والشك ، ولا يهوله  
إنكار بديع السموات والأرض ، أو وصفه بصفات الحوادث ، ويهرف

بأن السكرن بكواكبه وجوائه ، بأحيائه وجماداته من مبتكرات الطبيعة . أى حدوث شىء من لاشىء ، وهذا أعجب ضروب الخطل .

الكافر جامد الشعور ، متحجر القلب ، عابث ماجن ، صفيق الوجه ، مهين الكرامة ، يجرح الرذائل بخذافيرها (١) ، وهو لا يعتمد بأضرارها الروحانية ، أو الاجتماعية : يرى أن المرأة كوتتها الطبيعية للمتعة والتلذذ ، وحسب ، وأن الخمر يمتزج بكحولها الصفو والسرور ، وأن الميسر أداة لهو وتسلية ، ولا يرى غضاغة في اغتصاب الحقوق ، والاستبداد بالضعيف ، بل إنه يتخذ ذلك مظهراً من مظاهر الزهو والعزة والغلبة ، وقيسها بمقياس المدنية ، لا بمقياس الحمجية الغاشمة .

تجول بين ربوع دولة لادينية ، وادرس عاداتها وتقاليدها ، واقصص مشاهداتك على علاتها ، مجردة عن التعصب والتعلق ، وابدأ بأية دولة ، ممن حمل الأثر دعاية واسعة عريضة . استنفدت بياض النهار ، ولحمة الليل ، لمدينتها الراقية ، ونهضتها الحديثة ، وعن نبغائها العباقرة ، الذين طافت مؤلفاتهم الدنيا في مختلف العلوم والفنون ، وكانت موضع الإعجاب ، والدراسة المستفيضة .

أليست تلتهم قرى هذه الدول وأمصارها ، سهولها وحزونها : الجرائم الخلقية ، وتحفها المخاطر الاجتماعية ، ويتأجج في أرجائها سكير الرذائل الفاتكة ، وتنتهك قواهم الشرور والآثام :

إباحية مغلظة جارفة . لاتعارض مع تشييد مرقص بجوار بيعة ، أو مابى فى بناية معبد ، أو حان قبالة هيكل ، وما إلى ذلك ، مما تأباه تعاليم الإسلام .

(١) اننا اذ تناول هذا الموضوع تناولاً عاماً ، فانما نقصد من يتصف بهذه الصفات التى نسوقها

ومجون واستهتار ، وعيث وضلال ، وهو واعب ، وفسق وفساد ،  
وغواية ورقاعة ، ظلمات بعضها فوق بعض .  
لا يعرف الكهول رجالا ونساء ، معنى الرزاة والوقار ، ولا يقدر  
واجبات السن ، وسن الطبيعة . فينغمسون في الملاهى ، ويسفون إلى أبعد  
حدود الإسفاف ، لأن نشأتهم أحداثاً ، فاسدة خبيثة ، جانبت تعاليم السماء ،  
ورشاد الوجدانية . ولا يحترم الشباب حقوق المجتمع . ولا يقدس مثلاً علياً ،  
فمن مقاييس الرقى في عرفهم كثرة الخليلات ، ومن علامات الرفاهية  
والحضارة ، التحايل والخداع والتغير ، والمهارة في فنون الرذائل ، وبز  
الصحاب في التمار ، والمضاربة والربا والتدليس ، وتنسيق الزور ، وحبك  
المفتريات ، والتغلب على الخمم بالحق وبالباطل ، وإزالة الضعيف ، وانتهاك  
الحرمة ، وسلب الحقوق ، وسفك الدماء ، واستعباد من ولدتهم  
أمهاتهم أحراراً .

يخاصر الفتى الفتاة على مرأى ومسمع من ذويهما ، فيشيعوهما بإعجاب ،  
وابتسامة زهو وحبور ، ويلوث المجرم يديه بدم ضحيته ، ويعب في الجرائم  
عباً ، أيا كان نوعها : أدبية أو اجتماعية ، فيصفق له النظارة استحساناً وتمجيذاً .  
هذا بعض أوصاف المجتمعات اللادينية المنحلة الفوضوية ، فهل ينطبق  
شيء منها على مجتمعات الإسلام ؟ وهل توافق هذه العادات النابية دساتير  
السماء وقوانينها ؟

حكم ضميرك إذا قضيت مقسماً ، وقارن بين الإنسانين ، أيهما أخلق  
باللقاب المدنية والحضارة ، وأيهما أحق بالمجد والتكريم : مؤمن تقي ، يسير  
على سنن من التبصرة والهدى ، ويحظى بكرامة البشرى بالأجر الحسن في  
جنات الفردوس ، على ما أسلف في الأيام الخالية ، وكافر مجرم زعيم لا يمتاز

عن الحجارة في شيء ، كما قرر العلماء ذلك ، حيث أطلقوا على الجسم صفة الجواد . ولا ريب أن من يفقد مميزات الروحانية ، فإنه يفقد اعتباره كإنسان ويولى الجسم عنايته واهتمامه ، ولا يحفل بما عداه ، وبذلك تحيط به لعنات الإنذار بالبأس الشديد في جهنم جزاء بما قدمت يداه .

وأحسب أن هذه المقارنة بين الذين بشروا بالثواب الوافر ، وما تجملوا به من المقاصد النبيلة ، وحسن الأحداث ، ودوامهم في رضوان خالقهم ، قد حفزك على الانتظام في سمطهم ، وهجر أولئك المنذرين الذين أساءوا إلى الإنسانية ، وشوهوا بهاء الأخلاق ، وتعاموا عن إدراك المرامي التي هدفت إليها تعاليم السماء ، وتوغلوا مع هوياتهم الفاجرة ، فيما تدفع إليه من مجاهل الفوضى والآثام .

جهل المنذرين بما نسبوه إلى الله

---

مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ

---

فلم يبلغ الحق والجهل بإنسان ، ما بلغه بهذه النفاية ، فتخطوا سياج العقل والبصر ، واجترحوا أبشع ما يجترحه مأفون وضيع ، في حق الإله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، واتخذوا من صفات الحوادث نكأة في زعمهم الخاطل ، ولو كانت بهم مسكة من فهم وذكاء ، لنزهوا خالق لا كوان عن التناسل ، وما استدعيه من ضرورة الدور والتسلسل ، والفناء محتوم على كل ذي نسمة ، وكل ذي جرم .

ولكنه الجهل المطبق ، والتقليد الأعمى ، والرجعية المنهوك ، دفعهم إلى هذا المأزق المحفوف بالأخطار ، فوقعوا على وتيرة آباءهم ، غير



متدبرين جريرتهم ، وعمق الهوة التي ارتطموا بها ، فتلعنوا شرور سالفهم على  
علاقتها ، واعتنقوها إثماً مبيهاً ، فكانوا أفسد خلف ، لأخبث سلف .

شناعة ماتفوها به في حق مولاهم وبعده عن الصدق

---

كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا

---

هل وقفت على حقيقة نفسية المذنبين ، وماذا أبقوه لأنفسهم من  
كرامة ، ولعقليتهم المتبلدة من قيمة ، ولأخلاقهم المنحلة من ذمام ،  
فتخلفتهم الآثام كلها ، وقذفت بهم من حلق ، وأى شعور يساور من  
يطالع على مكنون من يستجمع في هبولته عناصر الكذب الفاضح ،  
والضلال الصارخ ، وهلا بأنف الاحتكاك بهم ، وزأى عن مهجعهم  
ومسراهم ، فندى عظمى مقاتلتهم هذه في الكفر والافتراء ، لما فيها من  
نفسه سبحانه إلى ما لا يكاد يليق بجناب كبريائه ﴿

تصوير حاة الرسول إزاء جموح المذنبين على دعوته

---

فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاعْبُدْ اللَّهَ مَحْضًا لِدِينِهِ الْإِسْلَامَ الَّذِي هُوَ دِينُ آبَائِكَ الْأَنْبِيَاءِ

---

الحديث أسفا

---

لقد اقتضانا المقام فيما سبق أن نرسم صورة مصغرة لعظمة محمد الرسول ،  
أما إننى لا أقول عظمة مادية ، تستمد هيبتها من مظاهر الأبهة والسلطان ،  
ولكن أقول عظمة شخصية وصلت الأرض بالسما ، استمدتها من بديع  
الأكوان . واكتنفت عنها من عزه تعالى ، وسمت على كل مقام بشرى .

وذلك . كي تدرك العبودية لرب الأرباب . على وجهها الصحيح . ولما كان النظم الكريم ، قد بين أولاً وظيفة الرسول كعبد لله . اختاره ليكون مهيئ وحيد ، أخذ يضيف عليه ثانياً . بعد شروعه في مهمته . حلال الطاعة والأمانة ، وشدة أسره في أداء رسالته . مما تستلزمه فروض العبودية الخائفة المتبتلة . الصادقة بالامر ، وثم يقسرنا المقام مرة أخرى . لوصل الحديث السابق ، حتى تتم الصورة ، وينبلج الضوء :

وصف القرآن العظيم الرسول بالرافة والرحمة « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم » ، فقد كان رسول الله ﷺ ، مثال العطف والشفقة والحنان ، إلى جانب أنه كان مثال السمو المادى (١) والمعنوى ، يعيش في الأرض على ضوء من السماء ، ويخالط الإنسانية في حضرة من الله ، « فإذا فرغت فانصب » ، وإلى ربك فارغب ، فهو ملك في بشر ، بل أعلا ، وفضيلة في مخلوق ، بل أزكى ، وكرم ومجد : أمانة وصدقا ، إخلاصاً وبراً ، كرماً ووفاء ، نجدة وإباء ، قواعد الخلق ، وقوانين المحامد ، فإذا يضيره وهو المصطفى ، أو ما يغويه ، وهو رسول القدير العليم « وإنك لعلى خلق عظيم » .

لذلك فقد كان ﷺ يحرص كل الحرص على تهذيب الإنسانية جميعاً ، يحزن وبأسى أن يرى فيها اعوجاجاً ، ويظمن سروراً أن يهتدى جلف يأوى إلى خيمة في قمة جبل ، ينام العالم ملء جفونه ، ويسجى الليل بهدونه وظلامه الطبيعة ، وهو ساهد يتلقى تعاليم الهداية والرشاد ، ويتدارس نظم الاجتماع ، وقوانين الحياتين ، يعالج الجاحد المنكر ، ويواليه كظله ، ليزعزه

---

(١) نشير بذلك إلى قوله تعالى : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم » أى ليس هو من معدن آخر غير معدنكم

عن المخاطر التي يشرف عليها ، كالطبيب بين يديه مدنف ، أعز أمانيه أن يخلصه من فكي الفناء . أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » فلو جمعت الرحمة في أسلوب فهو هاك ، وار وعنف العطف والحب يسبر السرائر ، هو ذاك .

المفروض أن وظيفة الرسول هي القضاء على الشرك والكفر ؛ ليختفي شبح الجرائم الخلقية والصحية ، والاجتماعية ، وتطهر الأرض من الرجس والضلال ، وتصل الإنسانية حين تصل إلى آخرة سعيدة هائلة ، وبحكم معرفة الرسول للإله سبحانه وتعالى معرفة كاملة صحيحة ، وقربه من الملأ الأعلى ، فهو يحافظ جهده أن لا يبدو عليه أى تقصير أو فتور في تأدية وظيفته . ولا يحتمل بما يعتريه من وعثاء ونصب ، كالعبد الذي يحبه مولاه ويكرمه . فإذا كلفه بعمل مهما كان شاقاً ثقيلاً ، فإنه يعنى بإحسانه وإجادته ، ليقوم بواجب الشكر ، على آلاء مولاه التي أسبغها عليه ، وخصه بها ، ولو شاء حولها إلى سواه .

عرف الرسول ﷺ ربه معرفة حتمية ، وأحب أمته حباً عميقاً ، فهو إذ يتفصد عرقاً في إسعادها ، فإنما تننازعه عاطفتان ، من أنبل العواطف ، ويهون عليه المجاهدة ، إيمان وقيادة ، فله إذن عذره أن يمثل الطبيب ، تظهر له اختبارات العلية أن الجسم التهمته الأدوية ، ومع ذلك ، فهو لا ييأس من الشفاء .

تصوير حالة الدنيا . والزجر عن الانسياق وراء الهوى

---

إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا

---

من حكمة القرآن ، وروعة نظمه الإلهي ، ودقة توجيهه للبشرية خاصة ،

والمكلفين عامة . الوجهة التعليمية الصحيحة . أنه بعد أن حُلل نفسية المبشرين والمنذرين ، وجلى أوصافهم فى أوضح بيان ، وسكن جأش الرسول ﷺ لجموح المعاندين ، أعقب ذلك ببيان حقيقة الدنيا ، والغرض من وجودها ، وفى هذه الآية الكريمة من الحكم ما تتضاءل دونه روائع البيان :

١ — تسفيه من يدحره لآلاء الدنيا الخادع ، عن جادة الصواب ، ويتخذها عزوة لآماله وأمانيه .

٢ — كشف حتميتها للمؤمنين الموحدين ، ليزدادوا تمسكا بما هو أبقي وأدوم .

٣ — تقرير أن كل ما زخرت به من متع وملاذ ، فقد قصد به الابتلاء ، ومحكا للطبائع .

٤ — تأكيد أن مآل كل ذلك الفناء المحتوم . الخ .

ومن ثم يبدو لى أن المقام هنا تناسبه وقفة قصيرة عند كينونة الحياة الدنيا ، أو الأرض : فهى هذا الكوكب المظلم الذى هياه الله تعالى ، وسطاً بين الحرارة والبرودة ، ليكون صالحاً لبقاء النوع الإنسانى ، الذى هو أسمى أنواع المخلوقات ، بما أودع الله فيه من عقل نورانى ، يستشرف المعارف ، ويهضم العلوم على اختلافها : مدنية كانت ، أو فلسفية ، أو اجتماعية ، أو دينية . وهذه ميزة لم تحظ بها الكائنات الأخرى (١) ، ومن أجل ذلك سخر الله جميع الخلائق ، لتعزيزاً لبقائه ، وإكمالاً لشئونه الحيوية ؛ ولما ركز فى جبلة الإنسان من طبع بهيمى ،

---

(١) لا يناقض ذلك ماقرر من أنه كان بين الملائكة من يحذل رسالة الله إلى عباده الرسل فى الأرض ، وما أثمر من أن جبريل كان يتذاكر القرآن مع النبي ، تلك مهمة يؤدونها دون أن يؤثر أنهم مطالبون بدراسة تحصيل ، وتعلم وتكليف .

وغرائز شهوانية . يشارك فيها جميع الحيوانات الأخرى . أوجد تعالى في الأرض ، مالا حصر له من المتع والملاذ التي تتطلبها حياته ، ويحفظ كيانه ، ولتكون متياساً على الرقي أو الحمجية « إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم » فالعاقل الذي يحجم عما يثنيه في عقيدته وأخلاقه وصحته ، والمثلث دنى النفس الذي يتشبهى ما ينفر عنه الطبع المذنى . العاقل الذي يأخذ من ملاذ الحياة ومتعها التمدد الذي أحله الله دون إفراط وتفریط ، ولقد أثر أن الانسان يأكل ليعيش ، والحيوان يعيش ليأكل .

المصير المحتوم للأرض الدنيوية

---

وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (١)

---

هذه الحياة التي تمرر إنفائها كلية ، وإحالتها إلى بلقع يبابا ، وإعدام كل ما زخرت به من المباهج ، ومعالم الزينة ، لتفاهته ، وأن قيمته لا تعدو قيمة التراب الذي يوطأ بالنعال : لا يليق بإنسان يحترم نفسه ، ويعرف قدر منزلته في الحياة والمهمة التي يودها بين الأحياء الأرضية العاقلة ، أن يفسد وظيفته الحقيقية ، وهي العمل الصالح ، بمغريات حقيرة ، ملاذها أوهام وأوصاب ، ومسراتها هموم وأتراح .

(١) قال العلامة أبو السعود : « وإنا لجاعلون » فيما سيأتى ، عند تنهاى عمر الدنيا « ما عليها » م المخلوقات قاطبة ، بافنائها بالكلية ... « صعيداً » والصعيد التراب ، أو وجه الأرض . قال أبو عبيدة : هو المستوى من الأرض ، وقال الزجاج : هو الطريق الذى لا نبات فيه . « جرزاً » تراباً لا نبات فيه ، بعد ما كان يتوجب من بهجته النظر ، وتشرف بمشاهدته الأبصار ، يقال : أرض جرز لا نبات فيها ؛ قال الفراء : جرزت الأرض فهي مجروزة ، أى ذهب نباتها بقحط ، أو جراد ؛ ويقال : جرزها الجراد والشاة والابل ، إذا أكلت ما عليها . . والمعنى لا تحزن بما عانيت من القوم من تكذيب ما أنزلنا عليك من الكتاب ، فإنا قد جعلنا ما على الأرض من فنون الأشياء زينة ، لتختبر أعمالهم ، فنجازيهم بحسبها ، وإنا لفنون . . . ذلك ، ومجازون لهم بحسب أعمالهم .

## آيات أصحاب الكهف - ارتباطها بما تقدم

صفة المؤمنين الذين آمنوا الوعدانية

بما تستدعيه من سمو ورفعة على خداع الدنيا الفانية

---

أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا

---

بعد أن نوه الاله جل شأنه بشأن المؤمنين الذين يعملون الصالحات عموما . عقب سبحانه بتفصيل حالهم . فقد ضرب أصحاب الكهف بفرارهم إلى خالقهم العزيز الحكيم ، أعظم الأمثال في الإيمان والتقوى والورع ، والاحجام عن سفساف عصرهم ، ونبد المظاهر الجوفاء ، واحتقار التمتع الفج ، ونشدان السعادة الحقة ، بإيثار الوجدانية والعمل الصالح ، على وعود جذابة ، ووعد مروع ، تتخاذل منه أعصاب الجلد الشجاع ، ولا يصمد له الكفاة ، وبذلك استحقوا هذا الذكر في كتاب السماء ، ليكون مقصدهم الأسمى ، وتفانيهم الكلي نموذج لمن اجتذبه شوق العبودية ، ومثلا تقتدى .

ففي التجانيهم بدينهم إلى الكهف معنى الفرار إلى الله ، وفي احتقارهم لمركزهم السامي في دولتهم معنى الزهد في الفاني ، وفي استجابة الله لدعائهم أن ينقذهم من توعده الأشرار ، وأن يحفظ عليهم نعمة الإيمان معنى إجابة دعاء المؤمنين الصادقين ، وأنه جلا وعلا قريب يجيب دعوة الداعي إذا دعاه ، وفي لبثهم في الكهف هذه المدة الطويلة معنى الفناء ، وفي بعثهم من رقدتهم معنى البعث العام يوم الذبور ، وأن الله على كل شيء قدير ، وفي

انتصارهم آخر الأمر ، وجعل رمسهم رمزاً على الطاعة والعبادة ، معنو  
انتصار عوامل الخير والإيمان على مفسد الشرور والآثام ، الخ . وسيمر  
تفصيل هذه المعاني في مظانها التالية .

والمعنى أن قصتهم وإن كانت خارقة للعادات . ليست بعجيبة بالنسبة  
إلى سائر الآيات التي من جملتها ما ذكر من تعاجيب خلق الله تعالى . بل هي  
عندها كالنزر اليسير ، والكهف : الغار الواسع في الجبل ، والرقم : كلبهم ،  
قال أمية بن أبي الصلت :

وليس بها إلا الرقم مجاوراً وصيدهم ، والتموم في الكهف همد  
وقيل : هو لوح رصاصي أو حجري ، زقت فيه أسماؤهم ، وجعل على  
باب الكهف ، وقيل : هو الوادي الذي فيه الكهف ، فهو من رقعة الوادي ،  
أى جانبه ، وقيل : الجبل ، وقيل : قريتهم ، وقيل : مكانهم بين غضبان  
وأيلة ، دون فلسطين ، وقيل : أصحاب الرقم آخرون ، وكانوا ثلاثة انطبق  
عليهم الغار ، فنجوا بذكر كل منهم أحسن عمله ، على ما فصل في الصحيحين ﴿  
إيثار المؤمنين دينهم على الملذات الجسمانية

---

## إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ

---

فهؤلاء الفتية ، كان لهم من منازل الحياة الذروة ، ومن المقام الاجتماعي  
السنام ، بيد أنهم لما أحسوا الخطر يحدق بدينهم انطوا عليه انطواء الأم  
الرءوم على وحيدها ، وضموا عليه حناياهم ، متسللين إلى حيث لا تقع عليهم  
باصرة ، أو يعكر عليهم هدوءهم ، ومناجاة إيمانهم جلبة الناس ولغظهم  
وغوغائهم في مبادئ الحياة ولهوها ، فأى مشهد يمثلونه في سراهم ، وقد  
نبذوا الدنيا بقصورها العالية ، وحنائقها الغناء ، والحشم والأقنان ،

والموالى والأخذان . واستبدلوا الفرش الوثير بالحصباء ، فى كهف تعصف به الرياح ، وتسفى الرمال ، بين زئير الوحوش . ولخيح الحشرات وقد رمزوا بجميع العصور والأجيال بكلهم ، على أن مصاحبه أفضل من مصاحبة الكافر . ولو امتلك خزان الذهب النضار .

تعلمش المؤمنين إلى طلب المزيد من الرشد والهداية

---

فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّءْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا

---

وحينما استوى بهم المقام ، واطمأنوا على دينهم من عوادي المجرمين ، وتلظ الأشرار ، وكانوا أشبه بمجد نهنه الإعياء والنصب قواه ، وضعضع حواسه ، فى ليل أليل ، تلفه صبارة القر ، وقد آوى إلى مقعد ناعم الملمس ، يشمله الدفء من كل ناحية ، فأى راحة تسرى فى أوصاله ، وأى سعادة تنساب فى شعوره ؟ إن الفتية بعد أن تنفسوا ملء رئئهم هدوء وطمأنناً على دينهم ، اتجهوا بالضراعة نحو السماء ، بأكرم دعاء ، يصدر عن قلب خاشع ، ونفس تفيض إيماناً ووحداً : « فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة . . . »

إسباغ نعم الله على الخاضعين لعزته وجلاله

---

فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا

---

فمن المسلم به أنه ليس هناك شىء أثر فى نفس الخائف الوجل ، الذى تهجس فى روعه أوهام الشر . وملاحقة الأعداء . من فترة يغمض فيها جفنه ، وتلم به أطياف الوسن ، فتتأى عنه أشباح الشجن ، ومن المقررات



النفسانية أن الخائف حليف السهد والأرق ، لا سيما إذا كان الخوف هالعا ،  
والذعر ناهكا ، حتى إذا مرت به سنة ، فهي متقطعة عابرة ، تثير كوامن  
الجزع ، وتجسم ظال الحدس .

فإذا أضفى الاله سبحانه نعمة النوم العميق على فتية الكهف ، فما ذلك  
إلا أثر كريم من فيوضات رحمته التي تشمل بها عباده المخلصين .

تجلى قدرة الله ، وإظهارها للعباد

ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لَنَعْلَمَ أَيُّ الْحَزِينِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا

أجل فكل شيء يدل على قدرة الله تعالى ووحدانيته ، وأنه الفاعل لما يريد ،  
ولا يؤثر في ذلك أن بعض ذوى العقول المادية قد حال بينهم وبين إدراك  
أسرار اللطائف الربانية ، كثافة الحيوانية البهيمية ، وانكماش تصورهم عن  
الوقوف على دقائق قدرة من إذا قال للشئ كن فيكون ، فإذا توهموا أن  
ثمة عوامل تحفظ الأجسام عن التحلل والفناء ، فإذا تخطتها ، فإن شيئا  
لا يعصمها عن ذلك ، فقد دلوا على غباؤهم وسخاوة أحلامهم بأبلغ دليل ،  
لأن الاله الذى بدع الأكوان بأحيائها ونباتها وجمادها ، قادر أن يبدع من  
العوامل الخارجة عن حدود التصورات البشرية ، ما ينفذ به مشيئته ،  
ويظهر قدرته ، وبصير فى الخلود ناطقا على وحدانيته جل وعلا . وذلك  
بالطبع لا يخفى على المؤمنين الذين هذبت الوحدانية نفوسهم ، وطهرت  
قلوبهم . ولا يحجب عن بصيرتهم رؤية الحقائق : قواقع الشك ، ولا  
طحالب الكفر الخبيث .

تفضل الاله باطلاع عباده على قصة أهل الكهف

## نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ

لا إخال المنكر مهما اندفع في حمايته أن يتملص من الاعتراف بحقيقة أهر من الشمس ، هي أن القرآن وحى السماء ، وأن في تشريعه سمو ، وفي نهيه فضيلة . وفي أمره كمال ؛ نظر إلى الانسان من زاوية الكرامة والاباء ، وذلك بطبيعة الحال ، لا يتأتى بأية وسيلة إلا عن طريق الوجدانية ، فيكيفها أدير الأمر . وبحث على جميع الوجوه ، فانه لا يستقيم إلا حيث كان الامان الخالص ، والعمل الصالح ، فإن تجاوزه كانت الحيوانية تنازع المقومات وتهبط بالمكرمات ، وتقذف من حلق ، وأى سحق يتردى فيه ذلك الذى يتهدى غير السبيل الذى يكفل للسارى مشارف الرفعة ، ومناط المجد والسعادة . ويأبى إلا أن يسلم مميزات الانسانية لحظمت الضلال ، وزخارف الغرور ، ومخارم الهلاك ؟

دعا القرآن الكريم العالم إلى التدثر بدثار الفضيلة ، والبعد عما يحط من مكانة الانسان حيث هو إنسان ، وركز دعوته للوجدانية ، وتشاريعه كلها فى هذا السياق . فأى اعتراض فى ذلك لمن خالف توجيهات القرآن وإرشاده ، وأبى إلا الاصطدام بصخور العتو والجوح ؟

هذا . ونبأ الفتية (حسبما ذكره محمد بن إسحاق بن يسار : أنه قد مرج أهل الانجيل ، وعظمت فيهم الخبايا ، وطخت ملوكهم ، فعبدوا الأصنام وذبحوا للأوثان ، وكان ممن بالغ فى ذلك ، وعتا عتوا كبيراً دقيانوس فانه غلا فيه غلواً شديداً ، جثاس خلال الديار والبلاد بالعيث والفساد ، وقتل من خالفه من المتمسكين بدين المسيح عليه السلام ، وكان يتبع

الناس ، فيخيرهم بين القتل وعبادة الأوثان ، فمن رغب في الحياة الدنيا الدنية يصنع ما يصنع ، ومن آثر عليها الحياة الأبدية ، قتله ، وقطع آرايه ، وعلقها في سور المدينة وأبوابها ، فلما رأى الفتية ذلك ، وكانوا عظماء أهل مدينتهم وقيل : كانوا من خواص الملك ، قاموا فتضرعوا إلى الله عز وجل ، واشتغلوا بالصلاة والدعاء ، فبينما هم كذلك ، إذ دخل عليهم أعوان الجبار فأحضرهم بين يديه ، فقال لهم ما قال ، وخيرهم بين القتل ، وبين عبادة الأوثان ، فقالوا : إن لنا إلهاً ملأ السموات والأرض عظمته وجبروته ، لن ندعو من دونه أحداً ، ولن نقر لما تدعوننا إليه أبداً ، فاقض ما أنت قاض ، فأمر بنزع ما عليهم من الثياب الفاخرة ، وإخراجهم من عنده ، وخرج هو إلى مدينة نينوى لبعض شأنه ، وأمهلهم إلى رجوعه ، ليتأملوا في أمرهم ، فإن تبعوه ، وإلا فعل بهم ما فعل بسائر المسلمين ، فأزمعت الفتية على الفرار بالدين ، والالتجاء إلى الكهف الحصين ، فأخذ كل منهم من بيت أبيه شيئاً ، فتصدقوا ببعضه ، وتزودوا بالباقي ، فأووا إلى الكهف فجعلوا يصلون فيه آناء الليل ، وأطراف النهار ، ويبتهلون إلى الله سبحانه بالأمن والجوار ، وفوضوا أمر نفقتهم إلى يملixa ، فكان إذا أصبح يضع عنه ثيابه الحسان ، ويلبس لباس المساكين ، ويدخل المدينة ويشترى ما يهيمهم ، ويتحسس ما فيها من الأخبار ، ويعود إلى أصحابه ، فلبثوا على ذلك ، إلى أن قدم الجبار المدينة ، فطلبهم ، وأحضر آباءهم ، فاعتذروا بأنهم عصومهم ، ونهبوا أموالهم ، وبذروها في الأسواق ، وفروا إلى الجبل ، فلما رأى يملixa ما رأى من الشر ، رجع إلى أصحابه ، وهو يبكي ، ومعه قليل من الزاد ، فأخبرهم بما شاهده من الهول ، ففرعوا إلى الله عز وجل ، وخرجوا له سجداً ، ثم رفعوا رؤوسهم ، وجلسوا يتحدثون في أمرهم ، فبينما هم كذلك ، إذ ضرب الله تعالى على آذانهم ، فناموا ، ونفقتهم عند

رموسهم . فخرج دقيانوس في طلبهم . بخيله ورجله ، فوجدوهم قد دخلوا الكهف ، فأمر بإخراجهم ، فلم يلق أحد أن يدخل عليهم ، فلما ضاق بهم ذرعاً قال قائل منهم : أليس لو كنت قدرت عليهم قتلتهم ؟ قال : بلى ، قال : فابن عليهم باب الكهف ، ودعهم يموتوا جوعاً وعطشاً ، وليكن كفهم قبراً لهم ، ففعل ، ثم كان من شأنهم ما قص الله عز وجل عنهم .

لعلك بعد ما تلوت هذه القصة الرائعة الأخاذة ، قد تأثرت نفسك بما انبث بن سطورها من صراع عنيف بين عوامل الشر ، يدعمها جبروت السلطان ، وطغيان الاستبداد ، وتلوث الطبع بنفثات الشياطين ، وبين عوامل الإيمان ، تؤيدها الوحدانية ، والفناء في الله ، ونبذ كل ما يدهمه بالإنسان في غيابة الجهل والخبيل ، فنضا الفتية الوجاه الأشراف عنهم مظاهر الأبهة والفخامة ، بما تستدعيه من جنوح القصد ، وانهيار ممسكات الكرامة ، وهرعوا لا يلوون على شيء ، إلى حيث القر والقيظ ، بما يستدعيه من رضوان الله ، ومشوبته .

### وصف عقيدتهم

إِنَّهُمْ فَتِيَّةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ

فالمرء بداهة لا يبلغ درجة رضوان الله إلا بالإيمان به تعالى ، وليس شيء أعظم في هذه الحياة من الإيمان برب الأكوان « إن أحسن ما قلته أنا والنيون قبلي لا إله إلا الله » فالإيمان بالله تعالى رمز كل فضيلة ، وهو مصباح العقول ، ومنار الأبصار ، وسنا القلوب ، وعصام النفوس عن الانفعالات الشريرة ، وإن من يذق حلاوته ، لا يحفل في سبيل الذود عنه ، بما يعترى الجسم من آلام وعناء ، ولست أكون مبالغاً إذا

هات : إن العناء الجسماني ، من عوامل تدعيم الإيمان ومناعته ، « ما أنت إلا  
إصبع دميّت ، وفي سبيل الله ما لقيت »

تقرير أن هدى المؤمنين في ازدياد مستمر

---

## وَزِدْنَاهُمْ هُدًى

---

فكيف جالد الإنسان وصارع ، ليمتلك القصور الشاهقة ، والضياع المترامية  
وتصطف حول جدره الخدم والحشم ، ويستهل مقدمه بالتلق والتطامن ،  
فلا يقاس هذا وغيره ، بما وصفه الشعراء ، وأمرام اليان ، بأنملة مما  
يضيفه الله تعالى على عباده المخلصين من الهدى ، ومن قال : إن الفاني الزائل  
كالذئب الخالد ، وأين الميزان الذي يساوى بين الوهم والحقيقة ؟

تتابع النعم على المؤمنين

---

## وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ

---

أيقنت الآن ، أننا لم نعد الحق ، فيما ذكرنا : إن الدنيا من أقصاها  
لأقصاها ، لا تقوم بظرفه عين من رضاه الله ، لأن امتلاكها لا يدفع شرا  
محدقا ، ولا يجلب منفعة مأمولة ، أما الذين قاموا في أفياء الربوبية ،  
وتضمنخوا بشذى العبودية ، فإن قوة لا تصمد لهم ، ولا خوف عليهم  
ولا هم يحزنون

ومعنى الربط على قلوبهم ، تقويتهم ﴿ حتى اقتحموا مضائق الصبر ،  
على هجر الأهل والأوطان ، والنعم والاخوان ، واجتروا على الصدع

بالحق ، من غير خوف وحذار ، والرد على دقيانوس الجبار :  
أجل : فهذا حق لا يمارى فيه إلا الأغبياء الأشرار ، وإنى أقرر  
أنه لو لا ما قضاه الله تعالى من جعل فرارهم إلى الكهف ، ومكثهم فيه آية  
بينة على التقوى والإيمان . ودليلا على قدرة العزيز الحكيم ، لجابهوا تهديد  
دقيانوس لهم بالقتل غير حافلين ، لا يززع إيمانهم قوة الجلاد ، ولا يريق  
السيف . ولكنها الموعظة الدائمة تبقى عليهم ، لتتجلى في أشخاصهم  
متحركين وساكنين ، وتبدو في حلة قشبية من وحى السماء ، بلسم  
للأدواء والأوبئة .

الأسباب التى من أجلها استحق أصحاب الكهف التكريم

## إِذ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

﴿ المراد بقيامهم انتصابهم لإظهار شعار الدين ، قال مجاهد : خرجوا  
من المدينة ، فاجتمعوا على غير ميعاد ، فقال أكبرهم : إني لأجد فى نفسى  
شيئاً ، أن ربي رب السموات والأرض ، فقالوا : نحن أيضاً كذلك ، فقاموا  
جميعاً « فقالوا ربنا رب السموات والأرض » - ضمنوا دعواهم ما يحقق  
فخواها ، ويقضى بمقتضاها ، فان ربوبيته عز وجل لهما ، تقتضى ربوبيته  
لما فيهما ، أى اقتضاء ، وقيل : المراد قيامهم بين الجبار من غير مبالاة به ،  
حين عاتبهم على ترك الأصنام .

هذا ، ولنفرض جدلاً أن « أصحاب الكهف » قد جرفهم تيار أهل زمانهم ،  
وعز عليهم خلع النعيم الذى كان يغمرهم فى دولتهم ، ورضخوا لإدارة  
دقيانوس ، ومردوا فى مخاطر الفوضى والضلال ، حتى عدت على جيلهم

عوادى الانقراض . وطبقت عليهم سنن الطبيعة من الفناء والعدم  
الديوى . فأين كانوا هم الآن ؟ أليسوا كانوا فى رسن قومهم ينتظرون  
جميعاً سوء الحساب . وهل يوجد عاقل فى أى عصر من العصور تتكشف  
له وجوه اليقين . وينحرف عنها ، انسياقا وراء شهوة عحلى . دلت التجارب  
والمشاهدات على أنها وليدة بائدة .

أؤكد أن دقيانوس نفسه ، لو بعث الآن ، وخير بين ملكه ، أو  
مصاحبة الفتية الذين طاردهم ، لكان أسبقهم إلى الكهف ، حتى ولو تقلب  
فيه على شوك القتاد عريانا ، بل لما استنكف أن يكون هو الكلب  
المجدود .

إذن فلا عذر لمن تحتمق من ذلك ، فيما يبدو عليه من التقصير فى الأخذ  
بالأسباب التى رفعت من شأن أهل الكهف ، واستحقوا بها ما استحقوا  
من كرامة ، وكانت قصتهم المثل الأعلى فى الإيمان ، ترتل فتأخذ بمجامع  
القلوب والألباب .

قوة إيمانهم وتسفيهم الشركين

---

لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذْنًا شَطَطًا

---

أجل فقد خلعوا الأغيار ، وتبرأوا من الشركاء إيثاراً لما يقضى به  
العقل . فهلا أدرت للخلف عجلة الزمن ، وتغلغلت فى أعماق الماضى آلاف  
السنين ، وأرهفت سمعك إلى أعذب أنشودة يترنم بها المؤمنون فى  
ناديهم ، فتهادى نحو نغمها القلوب ، وتهفوا الأفتدة . وتصيح المشاعر  
لتوقيعها الشجى ، وجرسها الطروب « لن ندعو من دونه إلهاً » بخ ، بخ ،  
إيمان وتوحيد ، فله ما أجمل افتضاض السرائر ، وأسنى البيان .

تهكمهم بمن يتخذ آلهة من دون الله

هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً

أى والله ، هكذا يكون الإيمان ، وهكذا يتخذ العاقل لنفسه ربيته تدرأ عنه ضلال الشرك ، ولا ريب فى أن صادق الإيمان ، لا يحجم أن يشنأ أقرب الناس إليه ، فى سبيل عقيدته ، فلا أبويه ولا أبناءه ، ولا لداته ، ولا إخوانه تكون لهم منزلة فى قلبه إذا اصطدمت عقيدتهم بعقيدته . قل لو كان آباؤكم ، أو أبنائكم ، أو عشيرتكم . . الآية ، لأن الإيمان بالله ، هو - خلع الغيرية - والفناء فى حب الله ، وكل تعارض مع ذلك ، لا يتسق وإياه ، وهذا من قبيل تعارض العناصر ، فلا يتحد عنصر بعنصر ، لا يتفق معدنه معه ، مهما برع الصهر والمزج .

تدليلهم على أن المشركين لا يعتمدون على حجة

لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ (١)

وهكذا ادرك فتية الكهف أن الألوهية تقتضى القدرة التامة ،

(١) قال العلامة أبو السعود :

لولا يأتون : « تحضيض فيه معنى الإنكار والتعجيز ، أى هلا يأتون »

عليهم : « على ألوهيتهم ، أو على صحة اتخاذهم لها آلهة »

بسُلطان بين : « بحجة ظاهرة الدلالة على مدعاهم ، وهو تبكيت لهم وإلزام حجر »



والتصرف المطلق وليست هي مجرد أوهام ، وخيالات ، وأيضاً فإن من مقتضياتها إقامة الأدلة القاطعة على هيمنتها على شئون الخلق ، ومقدراته كلها ، وحركاته وسكناته ، وبذلك يكون الإيمان قويا لا يتزعزع ، إذ لا مرأى في أن الإيمان إذا لم يقم على الحجة والإقناع كان إيمانا ، غير وثيق ، لذلك تأمل أصحاب الكهف في ملكوت الله ، وسبحوا بعقولهم ، في آفاق السموات والأرض ، مستقرئين فوق صفحتها قدرة الخالق ، وتفرد به بالربوبية ، ولما استيقنت أنفسهم ذلك آمنوا واستسلموا ولمسوا مبلغ فساد عقيدة قومهم ، ومدى فسولتها ، فهذه السموات والأرض خاصة ، وما وراءها من أكوان ، كلها صوى ومعالم على قدرة الله وعظمته ووحدانيته ، فأين إذن الآثار التي تنطق بالوهمية أدعياء قومهم ؟ ألا سحتماً لما يقترفون .

عودهم بالتأنيب على المشركين بعد دحض مفترياتهم

---

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا

---

فهذا دليل ما بعده دليل على افتراء وكذب كل من يعتنق عقيدة لا تقم على صدقها أدلة صحيحة ، مستمدة من الوقائع والمشاهدات ؛ أما أولئك الذين يطّيرون خلف كل ناعق ، فإنك لو عصرت نفوسهم عصراً ، لما جادت بقطرة واحدة من الإيمان ، وهم في الواقع أصل كل بلاء ، فلا يفوتون فرصة تسنح لارتكاب جريمة مهما كان نوعها ، اجتماعية ، أو خلقية ، أو دينية ، وأيان يحجم الزنديق عن موبقة ؟ !

إيثار المؤمنين اعتزال من يخالفون عقيدة التوحيد

## وَإِذَا عَزَلْتَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ

سبق أن أشرنا إلى أن المؤمن لا يوالى بحال من الأحوال من يخالف اعتقاده ، مهما كانت له حظوة لديه ، ومهما كان أثيراً عزيزاً ، لأن ولاية الله تعالى ، فوق نفثات العواطف ، وخوارج القلوب ، وأبرز من الآمال والأمانى الذاتية ، فأينما كانت المخالفة ، كان الاجتواء ، وهذا ما حفز أولئك الفتية الرفهون على العزوف عن أبهة الحياة وزخارفها ، ونبذ لين العيش ، وسطوة الجاه ، إلى الخشونة والأواء .

فيا للإنسان من الطغام ، تتضافر جميع الدلائل المادية والمعنوية على قدرة الله تعالى ووحدانيته ، وهم مع ذلك سادرون في عمايتهم ، يركبون كل آبدة ، ويجمعون مع كل شاردة ، ولو أدى بهم آخر المطاف إلى التحطم والانحلال .

الدعوى إلى تجنب الأشرار

## فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ

لقد عرف عن عظماء الأمم قديماً وحديثاً أنهم يركنون إلى الوحدة والانفراد عن غوغاء الاجتماع الصاخب ، كلما اقتضاهم إلى ذلك أمر ، أو تبدت لهم آفاق دعوة عامة ، تضع للإنسان قاعدة من المنفعة على أى وجه ، لأن الوحدة محك القرائح ، ومشعل الأذهان ، ومنتدى الأفكار وهى الجنة التى تعصم القلوب عن التشتت .

هذا ، وإن الواجب أن يتجنب المؤمن الأشرار إذا ترتب على البقاء بين ظهرانهم خطر على دينه .

حماية الله للذين يستجيبون له ، ورحمته بهم ونصره لهم

يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّءَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا

استقرى آثار الماضى والحاضر ، منذ خلق الله السموات والأرض  
تروى لك أصدق الأحاديث الشيقة ، فى نصره الله تعالى لعباده المؤمنين ،  
وإفاضة المكرمات عليهم أحياء وأمواتاً ، كى تتأسى خطوهم ، وتنبذ  
العوارض التى تقف حجر عثرة فى طريق بلوغك أسى ما يطمح  
إليه العقلاء .

حال الفتية فى الكهف

وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ  
وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرُّضُهُمْ ذَاتَ الشَّمَالِ . وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ (١) مِنْهُ

ومع ذهبت الدنيا بدداً فى هذه الصورة البديعة ، التى قامت تنطق آيات  
سماوية ، مقدسة عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات فكانت لهم أجمل  
البشرى ، وأعظم المشوبة .

تركوا ما تركوا من جنات وعيون ، وسطوة وجاه ، ورفاهة وزينة ،  
ودمقس وديباج ، ومراكز مرموقة تتمطع دونها أعناق الطامحين ، نظروا  
حوطهم ، فمألهم أن يروا ما يحدق بهم من زينة الحياة ، يحمل فى طياته معنى

(١) « تزاور » أى تزاور وتنحى ، بحذف إحدى التاءين ، وقرىء بادفام التاء فى  
الزاي ، وتزور كتعمر ، وتزوار كتجهر ، وتزور ، وكلها من الزور ، وهو الميل  
« تقرضهم » أى تقطعهم ، من القطيعة والصرم ، ولا تقر بهم .

الفناء والزوال ، كما نزول الرؤى ، وهو اجس الأمانى ، وأن شيئاً واحداً هو الخلق بالتشبه والهيام ، لا يزول ولا يفنى ، تتركز فيه السعادة الحقة ، وتناط بأهدابه الحياة ، التى خلق لها الإنسان : هو الإيمان الخالص ، برب الأنام ، وضحت لهم هذه الحقيقة ، فأنفوا أن تنحط مكائهم إلى درك الاغترار بتزاويق خيالية ، واستبدالها بمقومات الكمال والرفعة ، فسخرؤا بلائاء الحياة ، وبريقها الخلاب ، والتجأؤا إلى الكهف ، يقابلون فيه عوامل الطبيعة ، وتقلبات الجواء (١) مطمئنين مستبشرين ، ينشدون رضوان الله ، ويقومون أحراراً بفروض الطاعة والتعبد ، مسلمين أمرهم لمن بيده ملكوت السموات والأرض .

إلفات إلى ما انطوت عليه آيات أهل الكهف من قدرة الله

## ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ

من المقرر أن الناس تتفاوت درجاتهم العقلية ، كما تتفاوت درجاتهم المعيشية ، وتباين طبائعهم تبايناً متفاوتاً ، كل حسب استعداده الفطرى ، ولذا فإن لكل وجهة خاصة ، وإحساس مستقل ، حتى ولو جمعهم غرض واحد ، فلو اتفق اثنان على نتيجة ، فقد تفرقهما المقدمات ، وقل أن يتفقا اتفاقاً كلياً ، بحيث لو تحرك أحدهما حركة ، قابلها آخر بمثلها ، وقد سبقتهما فى نفسه المشاعر التى قامت فى نفس الآخر ، وهذا ينطبق على جميع الأشياء التى تقع تحت حس الإنسان وعقله .

(١) لا يتعارض هذا مع ما ذهبت إليه التفاسير : من أن النمس كانت تجانبهم ، ولا تمسهم بحرارتهما المحرقة ، فذلك بالنسبة إلى أن كل من يقف موقفهم ، لا بد أنه يتعرض للتقلبات الجوية ، فاذا حفظ الله أصحاب الكهف مما يلحق غيرهم لا محالة ، فانه فضل منه تعالى ورحمة ، إظهاراً لآياته ، وتجليه لقدرته ، وهذا بالطبع خارج عن نطاق تصورهم حينما التجأؤا إلى الكهف ، فان تطبيق سنن الطبيعة لا يستثنى منه أحد إلا بإرادة الاله القويم . وقد أثر أن من الارهاصات المحمدية تظليل النمام إياه أبنا سار صلى الله عليه وسلم .

يسمع السامع عبارة أو يقرأها ، فيفهمها بطريقة تغاير طريقة غيره ،  
من سمعها أو قرأها ، وربما اختلفت بينهما الغاية أيضاً . حسب استعداد  
الإنسان لإدراك الحقيقة . سواء كان على وجهها ، أو لا .  
خلق الله تعالى الخلائق إظهاراً لربوبيته المقدسة ، ووحدانيته  
الصمدانية ، ووجوده الأحدي ؛ وفرض عليهم عبادته ، وقيدتها بالفضائل  
والكمال ؛ فمن الخلق من عبادته معنوية كالجماد ، ومنهم عبادته بالإلهام  
كالحيوانات اللاعاقلة ، ومنهم عبادته تشبه عبادة الإنسان ، ولا ندري على  
وجه التدقيق ، مدى هذا الشبه . غاية ما وصل إليه علمنا ماورد في التنزيل  
« وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن ، فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجياً ، يهدي إلى  
الرشد ، فأمنابه » ، فهو يعطينا صورة مكبرة لإيمان الجن القائم على تدبر  
وعقل . ومنهم عبادته ارتكزت على العتلى ، واتخذت طابع البحث  
والدرس وهي عبادة الإنسان . وقد أشار كتاب الله العزيز إلى ذلك ، في  
آية قيمة ، كشفت سرا من أسرار العبادة ، لا ترقى العقول إلى مكونه  
إلا بنص إلهي كريم « ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في  
الأرض ، والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب ، وكثير  
من الناس ، وكثير حق عليه العذاب ، ومن يهن الله فما له من مكرم ، إن  
الله يفعل ما يشاء » .

وإن علمنا المحدود بعبادة المخلوقات الأخرى ، يضطرنا على أن نمسك  
عن الإفازة التي ينساق إليها الحديث قسراً ، حينما يقتضى المقام الإشارة  
إلى التعبد الإنساني ، بحكم الصلة والمعرفة ، وبحكم أنها أساس العبادة  
وعليها يدور محور التكليف .

فالإنسان يمر في حياته بالطور الأول ، وهو في دور تنشئة وتنمية

ثم ينتقل إلى دور الإعداد والتكوين العملي ، أو التوجيه الأدبي والاجتماعي ،  
كيفما تهدف إليه رغبة الفطرة ، وما تجنح إليه عادته الوراثة ، سواء  
امتزجت بها عادات مكتسبة من البيئة الخارجية ، وسواء طغت عليها  
بمؤثراتها أو لم تطغ ، فقد يرث الإنسان عادة كريمة ، فيفسدها عليه الوسط  
ويحيلها إلى عادة لئيمة ، وقد يرث عادة كذلك ، فيقومها الوسط ، ويحيلها  
إلى عادة نبيلة ، إن لم يكن بالطبع فبالطبع . وعند ما يبلغ الإنسان رشده ،  
تبدأ معركة العقل ، وبعبارة أوضح يتجرد العقل لتأدية وظيفته ، ويتجلى  
استعداده لإدراك الحقائق ، كما أشرنا في صدر هذا البحث .

فقد تشرق شمس الرسالة ، وتنتشر دعوتها آيات بينات . وهنا تنقسم  
عقلية الأمة إلى أقسام متفاوتة :

( أ ) عقلية ممتازة قوية سريعة الإدراك والتأثر بالحقائق ، واستخلاص  
المفاهيم ، والمقارنة بين الخطأ والصواب ، والشك واليقين ،  
والصدق والكذب ، والهدى والضلال ، وهي عقلية الموحدين  
الجهابذة الذين صفت نفوسهم ، وسمت طبائعهم ، وبذلك استحقوا  
عن جدارة للقلب العلي ، وانتظمت في أفكارهم المقاييس ،  
واعتمدت موازين الآراء ، وانعكست عليها أضواء المعرفة ، فكانت  
أمنع عاصم هم عن الخروج على سنن العقل ، وأقوى حافظ على  
الإقرار بالحق ، والرجوع إليه ، ومن أبصر من العلماء لآفاق آيات  
الله القريبة والبعيدة .

( ب ) عقلية متوسطة بطيئة الإدراك والفهم ، تقوم رواسب الطبع ،  
وأثقال المادة حائلادون صفاء الذهن ، ومانعاً للعقل عن أداء وظيفته  
لأول وهلة ، وهي عقلية مستعدة للتثقيف إذا جليت لها الحقيقة

في صورة تستطيع تكييفها وهضمها ، فلا تردد في الإذعان والاستسلام ،  
كهذا التغير الكلي الذي يطرأ على من تتكشف له حقائق كانت  
محجبة عنه .

(ح) عقلية أقل من المتوسط ، فيها بصيص من الإشعاع ، وهي عقلية  
الدهماء ، ومن في حكمهم ، وقد يكون إدراكها ومعرفة لها وليد  
التقليد ، أو ملابساً للمشاهدات المرئية ، والطوارئ الملموسة ،  
وهذه يتخذ ذوقها في مسلكهم الخاص والعام أسلوباً يتفق وما يهيمن  
على مشاعرهم من لين العريكة ، وسهولة المراس ، في اتباع ما يدعون  
إليه ، إذا تأثرت به عواطفهم ولمس مكان من الهوى ، دون تدقيق في  
مدى ما يدعمه من أدلة وبراهين . لذلك فقد سلك القرآن الكريم في  
تعاليمه وإرشاداته جميع المسالك التي تلائم مختلف العقول . وهذا  
من الأدلة القائمة على أنه من لدن حكيم خبير .

(د) عقلية صماء مطبقة ، متبلدة متداعية عمياء ، ران عليها ظلام الجهل  
فتقلصت ، وقضمها خور البهيمية فارتكست ، وهي عقلية الجاحدين  
الآغبياء ، الذين تسلطت عليهم الهواجس والأوهام ، ونظروا إلى  
الحقائق بمنظار أسود ، من زاوية الشكوك والريب ، وتأملوها من  
كرة الشهوات . وأولئك هم موطن الخطر الخلق والاجتماعي ، لأنهم  
موئل الجهل والإجرام ، لأن عقولهم لم تتسع لتثقيف العلم والعرفان ،  
أي التوحيد والإيمان ، أي معرفة الخلاق الأعلى ، بما في أكوانه  
تعالى من صوى وأمارات ، وما ازدهر في كتابه المكنون من  
هدى وإرشاد .

يتناول العلماء دعوة الرسل بالبحث والدرس ، والقياس والاستنباط ،

والمقابلة والمقارنة ، حتى إذا أقرت عقولهم بصدق الدعوة ، عمدوا إلى نصوصها ، يشرحون ما يخفى منها على أذهان العامة ، ويؤولون ما يدق فهمه على بعض العقول ، يناظرون ويفلسفون ، يجادلون ويحاورون ، ويقرعون الحجة بالحجة ، ويفلون الدليل بالدليل ، والإنسانية من ورائهم تقطف ثمار هذا وذاك ، وترشف من معين هؤلاء وهؤلاء ، فمن كان فيه الاستعداد للتثقيف والعلم وصل وآمن ، ومن رسبت به عوادي الوراثة ، أو عوارض البيئة ، فتخطى صفوف العقلاء ، ضل مع الهالكين .

وهذه حجتنا على مذهبنا إليه نتلوها آيات كريمة كشفت من التاريخ أستاراً ، تشع منها أضواء فتية آمنوا بربهم ، ولم يدعوا مذهباً من مذاهب التقوى والورع والفناء في الله إلا يمموا صوبه ، أبلغ ما يكون السرى ، وأوغل ما يكون التوجه ، غير عابئين بشيء ، اللهم إلا أن تتداني لهم مشتبهات القرب . فهل ثمة ما يمس العواطف ، وينير العقول ، أعظم من هذا المثل العالى « ذلك من آيات الله (١) » وماذا يكون موضع من يعمى عنه بين الأسرة الإنسانية ؟

(١) قال العلامة أبو السعود فى تفسير هذه الآية : « ذلك » أى ما صنع الله بهم من تزاور الشمس وقرضها ، حالى الطلوع والذروب ، مع كونهم فى موقع شعاعها « من آيات الله » العجيبة الدالة على كمال علمه وقدرته ، وحقية التوحيد ، وكرامة أهله عنده ، سبحانه وتعالى . وهذا قبل أن سد دقيانوس باب الكهف ، وقيل : كان باب الكهف ، شمالياً ، مستنبل بنات نعش ، وأقرب المشارق والمغارب إلى محاذاته رأس مشرق السرطان ومغربيه ؛ والشمس إذا كان مدارها مداراً تطلع مائلة عنه ، مقابلة لجانبه الأيمن ، وهو الذى يلى المغرب ؛ وتغرب محاذية لجانبه الأيسر ، فيقع شعاعها على جنبيه ، وتحلل عفونته ، وتعدل هوائه ، ولا يقع عليهم ، فيؤذى أجسادهم ، ويبلى ثيابهم ، ولعل ميل الباب إلى جانب الغرب ، كان أكثر ، ولذلك وقع التزاور على كهفهم والفرس على أنفسهم ، فذلك حينئذ إشارة إلى إيوائهم إلى كهف هذا شأنه . وأما جعله إشارة إلى حفظ الله سبحانه إياهم فى هذا الكهف تلك المدة الطويلة ، أو إلى إطلاعه سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم على أخبارهم ، فلا يساعده إirاده ، فى تضاعيف القصة »



تقرير أن الهادى هو الله وحده

مَنْ يَهْدِي اللَّهُ فَبِهِ الْمُهْتَدُ وَمَنْ يُضِلَّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ  
وَلِيًّا مُرْشِدًا

لقد علمت مما تقدم أن كتاب الله تعالى نشر على الانسانية أضواء الهداية، ونور المعرفة، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، وطبعاً فهذه الهداية الصحيحة التى تنتزع الانسان من مغالب الفوضى، والانهار، هداية واضحة، لا تضيرها شوائب، ولا تغشاها سحب.

وعلمت أن الإله الحكيم، تفضل على عباده بهذه الهداية، رحمة من لدنه وكرماً، فلو سائرنا شقشقة المنطق، وافترضنا أن المولى سبحانه ترك عباده سواهم ضوال، وهذا أمر بعيد الاحتمال بداهة، لبعده عن قوانين العقل، فنذا يستطيع إذن القيام بهذه المهمة الضرورية، إذ لا جدال فى أن « من يهدى الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً ».

فلا مرأى فى أن الحياة الدنيا قد حفتها أخطار جسيمة، إن لم يتوقاها الانسان، تهدم كيانه، ونجى عليه الوبال، ومعنى ضياع الفرد، ضياع المجموع، ولما كان المرء مهما سما عقله، لا يتأتى له أن يميز من تلقاء نفسه بين الخير والشر، وأن البشر أعجز من أن يحددوا الحدود، ويشرعوا النظم الدينية والخلقية والاجتماعية، لذلك اقتضت حكمة الله تعالى، تمشياً مع سنن العقل، أن يكون ذلك عن طريق رسل كونهم تكويناً ممتازاً، وجملهم بخلق كامل، وأدب جم، وفطرهم على الفضيلة والرقى.

ولقد مثل أهل الكهف هذه الهداية، أروع تمثيل، فلم يزغزع إيمانهم

رغبة ولا رهبة ، ولم يلوهم عن قصدهم الأسمى ، مراکز ، ولا وعود أو وعيد ، أما الرحمة واللاطف ، فلن يستشرفها باحث متجلية في غير قوله تعالى : « فلن تجد له ولياً مرشداً » .

نماذج من آثار قدرة الله

وَتَحْسِبُهُمْ أَيَّاقًا وَهُمْ رُقُودٌ ، وَنَقْلُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشَّمَالِ ، وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ (١)

فإن فحست الدنيا خفصاً ، وذرعتهما يمنة ويسرة ، فأنى انتهى بك السرى ، فانك تجد آثار قدرة الله العظيم وهدايته مائلة ناطقة في سامق الدوح وبارض العشب ، في شاخ القنن ، ومنبسط الوديان ، في ذرات سابعة ، وعمالقة فارعة ، في كواكب زاهية ، وأقمار متلائة ، في صوى الأرض ، وعلامات السماء .

فمن يتأمل كنه هذه الآية الشريفة ، ويتدبر مغزاها الكريم ، فإنه لا يقوى ، ولو مالاته الأبالة ، على الأخذ بحجز قلبه عن الإقرار بوحدانية الله تعالى ، والإيمان بقدرته التامة ، فهي ناطق مبين على تفرد الإله بالقدرة القادرة ، التي تستدعيها الوحدانية الإلهية ، واجب الوجود ، المعبود بحق ، الذي تعلقت قدرته بإنامة فتية الكهف البررة هذه المدة الخارقة للعادة ، وبعثهم منها ، ليمثلوا بأشخاصهم ، أبرز الشواهد على قدرته تعالى ، وليس في ذلك ما يخالف المعقول ، طالما توافرت الدواعي لحفظ الجرم المادى عن

التحلل والتفتت ، وكأنى بهؤلاء الذين اكتشفوا مواد التحنيط لبقاء  
الجسوم محتفظة بكيانها الوجودى آلاف السنين ، قد هداهم الإله إلى هذا  
الاكتشاف للتدليل على قدرته جل ثناؤه إنامة أهل الكهف الزمن الذى  
أشار إليه القرآن المبين ، وليس بعزيز على الذى منح الأشباح أرواحها ،  
أن يحفظها متحركة وساكنة .

« سزيرهم آياتنا فى الآفاق ، وفى أنفسهم » .

وإلى جانب ذلك ، فى هذه الآية ملاحظة دقيقة : فلو رام أجحف  
القاسطين أن يوازن بين الكلب (١) الذى رافق فتية خلفوا وراءهم الدنيا ،  
بمخافها الصاخبة ، وبين « دقيانوس » ذلك الملك الطاغية العاتى الشرير ، لما  
اهتدى إلى حيلة يساوى بها بينهما فى المكانة والمقام ، ولرجحت دائماً كفة  
الكلب ، مهما ضلل وأقسط - كلب ، وملك - لا جامعة بينهما فى التقدير  
الحيوانى ، بيد أن بينهما فارقاً شاسعاً فى الفضل ، حتى ليعز الأمل على  
الملك أن تسعفه الصيرورة الكلبية ، التى تحميه من عقاب السعير . وإذا  
خلصت هذه القضية من المكابرة والتعننت ، وارتفعت منزلة الكلب على  
الملك لمجرد اتباعه البررة التقاة ، فثمة مثل عليا فى التواضع ، ولين الجانب ،  
ورقة الشعور ، وسمو النفس ، وجلال الانسانية ، أضاء مشاعلها فتية

---

[١] قال العلامة أبو السعود : « قيل : هو كلب مروا به فتبعهم ، فطردوه صراراً ،  
فلم يرجع ، فأنطقه الله تعالى فقال : لا تختصوا جانى ، فأنى أحب أحباء الله تعالى فناموا  
حتى أحرسكم وقيل : هو كلب راع قد تبعهم على دينهم ويؤيده قراءة : كالهم إذ الظاهر  
لحوقه بهم وقيل هو كلب صيد أحدهم أو زرعه أو غنمه واختلف فى لونه فقيل كان أسمر  
وقيل أصفر وقيل أصهب وقيل غير ذلك وقيل كان اسمه قطير وقيل ريان وقيل تنوه وقيل  
قطمور وقيل نور قال خالد بن معدان ليس فى الجنة من الدواب إلا كلب أصحاب الكهف  
وحمار بلعم وقيل لم يكن ذلك من جنس الكلاب بل كان أسداً » .

الكهف . بقبول راع صاحباً ورفيقاً ، وهم ماغم ، مركزاً ، ووجهة ؛  
ولكنها الوجدانية الصمدانية . أنى تنبثق فى قلب ، تستخرج منه غواشي  
الغطرسه والكبرياء ، وتمسح عن البشرية فوارق الجنسية ، وكثافة الانانية ؛  
ولا تقر فضلاً لأحد على أحد ، إلا حيث كانت التقوى ؛ فالناس فى  
حدودها سواسية كأسنان المشط .

### إحاطة الهيبة بأصحاب الكهف

---

لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعبًا (١)

---

وكما أن الوجدانية تسوى بين العباد جميعاً ؛ فإنها أيضاً تضى على ذويها  
حلل الوقار ؛ وتحيطهم بهالة من الهيبة والجلال .  
ففى مشاهداتنا الدنيوية ؛ تبدو ظاهرة من مظاهر الهيبة التى يكتسبها  
الانسان من الانسان ؛ والاستشهاد بها يقرب إلى الأذهان ما ينغلق عليها  
من الحقائق المعنوية ؛ فقد نشاهد خواص ملك من ملوك الدنيا ؛ ووطائفة  
مثلا ؛ أينما استقر بهم المقام ؛ فأنهم يكونون موضع الإكبار والهيبة ؛  
وتكون لهم الصدارة والتكريم ؛ فكيف بأحباء الله وخلصائه من خيرة

---

(١) « كانت أعينهم مفتحة كالمستقيظ الذى يريد أن يتكلم وقيل لطول أظفارهم وشعورهم  
ولا يساعده قولهم « لبثنا يوماً أو بعض يوم » وقوله ( ولا يشعرون بكم أحداً ) فان الظاهر  
من ذلك عدم اختلاف أحوالهم فى أنفسهم وقيل : لعظم أجرامهم »

وعن معاوية لما غزا الروم فر بالكهف قال لو كشف لنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم فقال  
له ابن عباس رضى الله عنهما ليس لك ذلك قد منع الله تعالى من هو خير منك حيث قال  
لو اطلعت عليهم الآية قل معاوية لا انتهى حتى أعلم عليهم فبعث ناساً وقال لهم اذهبوا  
فانظروا ففعلوا فلما دخلوا الكهف بعث الله تعالى ريحا فأحرقتهم ا هـ

العباد ؛ أحسب أن دون جنزلهم تتقطع أعناق العواهل والأقيال  
 فإذا طويينا مراحل العصور منذ آلاف السنين ، وأشرفنا على كئيب من  
 عصر أمراء المؤمنين ، لألفينا عمر بن الخطاب يملأ رتبه من الزهد في  
 الدنيا لأنه لمس حقيقتها كما أراد الله أن يلمسها المؤمنون فتكشف ما وسعه  
 التكشف والشمس لا تغرب عن ملكه والرفاهية دانية القطوف إن رامها  
 والسطوة « الدقيانوسية » لا تحطه إن رغبها فيعزف عن وثير الفراش  
 وصوارم الحراس ويذهب إلى خارج المدينة ليتخذ من بطاحها مهاداً ومن  
 صعيدها فراشاً ؛ حتى إذا أسلم جنبه للأرض ، وغط في النوم بدا على  
 رمية حجر منه ، هزبر مفترس يدرأ الشر عن إنسان نافع عن الدين بكل  
 ما وسعه جهده وبطشه ؛ فلما وفد إليه أحد ممثلي أقيال الفرنج وأخبر عن  
 مكانه يمم صوبه ؛ لإنجاز مهمة دبلوماسية فهاله أن يرى أمير المؤمنين الذي  
 تنزل الأرض تحت أقدام جحافلهم وترتج دعائم المعمورة أن يزعم أساريه  
 يراه يفترش الغبراء ويتوسد ذراعه وعلى مقربة منه وحش ضار ؛  
 لامتوثباً للافتراس ولكن مقعياً رهبة وخشوعاً للحراس ؛ ولم يتمالك أن  
 نطق لسانه بهذه القولة الذائعة « عدلت فأمنت فنمت »

فلو عرف موحدو ذى الجلال والإكرام أن يستغلوا ما أودع الله  
 فيهم من أسرار العلو والعزة لما مضى زمن طويل حتى تكون لهم الزعامة  
 العالمية ، كما كانت لأسلافهم السابقين . ألا اطلعت على ماسجله التاريخ الديني  
 لمبعوث النبي صلى الله عليه وسلم إلى دعوة إحدى أمتين كانتا تتقاسمان  
 سيادة الدنيا ، وكيف لم يأبه لهذه المظاهر المهيبة التي أراد عاقل الأمة أن  
 يفجأه بها ليؤثر في نفسه ، ويملي عليه رغبته ؛ ولكن نائب النبي العظيم جرد  
 سيفه وأملى شرطه : إما الطاعة ، وإما السيف فأين المسلمون الآن من  
 هذا الجلال .

## هيمنة القدرة على شئون الحياة المادية والمعنوية

وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ (١)

فقد اقتضت حكمة الله تعالى - مسيطرة للسنن العقلية - أن يربط البقاء الكونى بـ «وثرات» خارجية تركز الحياة عليها مجتمعة ، بحيث لو وقع خلل فى إحداها - وذلك بالطبع بعيد الاحتمال ، مادامت إرادة الله متعلقة بدوام الحياة - تحلت ظواهر هذا الخلل فى الناحية التى ارتبطت بها الحياة : فالشموس ، والأقمار ، والكواكب على تباين أجرامها ، والأنواء ، والأمطار على اختلاف درجاتها ، وذلك كله مظاهر الجواء للقدرة الإلهية ، والأنهار ، والجبال ، والشجر ، والمدر ، والحيوان ، والنبات ، وما إليها من المظاهر الأرضية لقدرة الخلاق العظيم ، وجميعها يسير على وتيرة من الدقة لا يعتورها الخلل والارتباك بحال من الأحوال . وقد تضافرت جميع هذه العوامل لبقاء النوع الإنسانى . وهذه العوامل الخارجية ، تقابلها عوامل أخرى لاتنفك عن الإنسان ، ولا تريمه طالما تنبض فيه الحياة : كالنوم ، واليقظة ، والصحة ، والسقم ، والحركة ، والسكنة ، والقيام والقعود ، والإقبال والإدبار ، والأكل والشرب ، وما يتخلف عنهما من براز وبول ، والسرور والحزن ، والعبوس والابتسام ، وكلها أحوال لا فضل للإنسان فى تجليها إلا كفضل الآلة فى التنفيذ (٢) فإذا أرق الإنسان أرقاً يخرق العادة ، لتعلق إرادة الله تعالى بإظهار قدرته فى هذه الناحية ، فلن توجد قوة على وجه الأرض ، تستطيع أن تذيب جفنه ظل من النوم ، ولو استغرق.

(١) « ليتساءلوا بينهم . أى ليسأل بعضهم بعضاً ، فيترتب عليه ما فصل من الحكم البالغة »

(٢) سنفيض الحديث فى هذا المعنى عند قوله تعالى . « ولاتقولن لشيء إنا فاعل

ذلك غدا » إن شاء الله تعالى .

الطلب جهده في التحليل والتعليل والتجارب ، كما أن قدرته تعالى إذا تعلقت  
بإقامة إنسان بما فوق العادة والمألوف ، لطبع قدرته جل شأنه بطابع الإظهار  
المادى ، فإن قوة على وجه الأرض ، لاتستطيع أن توقظه مهما أتيحت لها  
من أسباب العلم وطرقه وشعابه .

البحث فى شأنهم بعد اليقظة - وثبات إيمانهم

---

## قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ

---

إذ علمت ذلك ، فاعلم أنه قد تعترى بعض النفوس عوارض ابتلاء  
واختبار ، تكون محكما لعقائدهم ، وقوة إيمانهم . فالعقيدة الراسخة  
لاتزعزع بعنف الوقائع وقوتها ، بل لاينظر إليها إلا من ناحية الامتحان  
والسخرية « يوما أوبعض يوم » لله ما أروع الإيمان يقابل الشدائد  
والابتلاء ، بقلب سليم ، ونفس مطمئنة ، وماذا تنال الحادثات من الأشباح  
إذا كانت الأرواح سابحة فى رياض الألوهية ، ترشف كؤوس السعادة ،  
وتتقلب فى أعطاف اليقين ؟ .

تفويض جميع الأمور إلى الله

---

## قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ

---

فمن واجب المؤمن الصادق والحالة هذه أن يفوض أموره كلها إلى عالم  
الغيب والشهادة ، وأن لا يتمسك بأهداب الحجاج ، فيما لا طائل تحته ،  
والعاقل الذى يدرك كنه الحقائق على وجهها ، لا يغيب عنه أن الإله تعالى  
هو المهيمن على شئونه كلها ، والمسيطر على حركاته وسكناته ، من نوم

ويقظة وغيرها وليس هناك ما يرد عنه قضاءه إذا اختاره لاجتلاء آثار قدرته  
تتبرر أن التزود لا ينافي التوكل

فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ (١) ، فَلْيَنْظُرُوا فِيهَا أَرْكَى  
طَعَامًا ، فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا

وهكذا ترى أن المؤمن لا تتنازعه عاطفة أو رغبة مما يتماسك به الكيان  
الوجودي ، من : مأكـل ومشرب وملبس ومأوى ، طالما تعارض مع  
إيمانه ، بل ويربط جميع أحواله بما يدعم يقينه ، ويفر عما يتوهم أن فيه  
خطرًا على دينه ، وهو أتمن شيء لديه ، ويسد المنافذ المؤدية إلى الشك  
والاسترابة ، وذلك لا يمنع من التزود بالطعام الذي يقيم الأود ، ويمسك  
الحشاشة . فان التزود لا ينافي التوكل بحال .

تجنب أصحاب الكهف المسالك التي تسيء إلى عقائدهم

إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا (٢) عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ ، أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ  
وَلَنْ تَفْلَحُوا إِذَنْ أَبَدًا

وإن المؤمن مهما عجمت عوده المحن والأرزاء ، وسفت به البلايا  
والفواجع في سبيل دينه ، فان ذلك لا يزيده إلا تمسكاً به ، وتعلقاً بأهدابه ،

(١) « قالوه إغراضاً عن التعمق في البحث ، وإقبالا على ما يهمهم بحسب الحال .  
والورق النفضة مضروبة أو غير مضروبة . »

(٢) « أي يطلعوا عليكم ، أو يظهروا بكم . »



ولو تمخضت عظامه ، وهرأت جسمه . تبدو صورة ذلك مكبرة ناطقة بما  
صرح به فتية الكهف بعد بعثهم من رقبتهم الفضة مباشرة ، فانهم مع ما مر  
بهم من خشونة وانقطاع عن العالم ، وسلب يقظتهم التي يستتبعها بالطبع ،  
بلوغ المآرب . واجتناء المشتبهات لم يشغلوا أذهانهم بما آلت إليه حالتهم ،  
بل نبذوا تجاذب أطراف الحديث في هذا الموضوع ظهرياً ، حذراً أن يجرهم  
إلى ما لا يتفق وعواطفهم الدينية وسكبوا في آذان العصور ، بأن كل همهم  
من الحياة لا يعدو ما يمسك الأود من طيب الطعام زكيه ، ثم لا يطامح  
لهم بعد ذلك إلا التوجه إلى الله عز وجل بكلياتهم وجزئياتهم . وبذلك  
تحقق لهم الفلاح الذي لا يتحقق بدونه مطلقاً .

كشف أمرهم في عصر غير عصرهم

وَكَذَلِكَ أَعْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ  
السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا

فله أسمى ماخلده ، أصحاب الكهف ، للعالم من مثل عاليا ودروس دينية  
نياما وأيقاظاً ، متخفين وظاهرين ، وما تجلى في أشخاصهم ، متحركين  
وساكنين من قدرة الله سبحانه .

اختلاف الرأي في شأنهم دليل على علو منزلتهم

إِذِ تَنَازَعُونَ أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُيُوتًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ

فلا جدال في أنه عندما ينفذ قضاء الله ، وتبرأ القلوب من وعشاء الشك

بما يبدو من آثار قدرته ، وينكشف غيبه في الوقت المقدر لذلك ، يتسابق الناس كل يرغب في أن يتخذ وسيلة للتقرب ممن كان السبب في تجلي آثار القدرة . ومن القضايا المسئلة أن الشيء لا يتنازع من أجله إلا إذا بلغت قيمته الدرجة التي يستأهل بها التنازع (١) ، فكيف وأصحاب الكهف قد ارتقى شأنهم فوق السماكين ، وتجاوزت درجاتهم الدينية كيوان والسها ، وأى درجة تدانى من يبلغ أمرهم حدود المعجزة ، لاجدال في أن التنازع في أمرهم مما يقتضيه المقام ، ويدفع إليه الواقع . وهكذا فإن كتاب الله الكريم يعطينا صورة صحيحة من الحتمات المرتبة ترتيباً حكماً . بحيث يحسمها لنا ، في بناء

(١) قال العلامة أبو السعود : « إذ يتنازعون بينهم أمرهم : ليرفع الخلاف ، ويتبين الحق ، قيل : المتنازع فيه أمر دينهم ، حيث كانوا مختلفين في البعث ، فمن مقر له ، وجاهد به ، وقائل يقول ببعث الأرواح ، دون الأجساد ، وآخر يقول ببعثهما معاً . قيل : كان ملك المدينة حينئذ رجلاً صالحاً مؤمناً ، وقد اختلف أهل مملكته في البعث حسبما نزل ، فدخل الملك بيته ، وأغلق بابه ، وأمس مسحاً ، وجلس على رماد ، وسأل ربه أن يظهر الحق ، فألقى الله عز وجل في نفس رجل من رعيائهم ، فهدم ماسد به دقيانوس باب الكهف ، ليتخذ حطيرة لغته ، فشد ذلك بثهم الله تعالى ، فجرى بينهم من التناول ما جرى ، وروى أن المبعوث لما دخل المدينة أخرج الدرهم اشتري به الطعام ، وكان على ضرب دقيانوس ، فانهده بأنه وجد كترأ ، فذهبوا به إلى الملك ، قص عليه القصة ، فقال بعضهم : إن آباءنا أخبرونا بأن فتية فروا بدينهم من دقيانوس ، فلعلهم هؤلاء ، فانطلق الملك وأهل المدينة من مسلم وكافر وأبصروهم وكلوهم . ثم قال الفتية للملك : نستودعك الله ، ونعيذك به من شر الانس والجن ، ثم رجعوا إلى مضاجعهم فأتوا ، فألقى الملك عليهم ثيابه ، وجعل لكل منهم تابوتاً من ذهب ، فرآهم في المنام كارهين للذهب ، فجعلها من الساج ، وبنوا على باب الكهف مسجداً ، وقيل : لما انتهوا إلى الكهف قال لهم الفتى : مكانكم حتى أدخل أولاً ، ثم لا يفرعوا بدخل ، فعصى عليهم المدخل ، فبنوا ثمة مسجداً . وقيل : المتنازع فيه أمر الفتية قبل بثهم أى أعثرنا عليهم حين يتذكرون دينهم أمرهم ، وما جرى بينهم وبين دقيانوس من الأحوال والآهوال ، ويتلقون ذلك من الأساطير ، وأفواه الرجال ... »

« بنيانا » مثلاً يتطرق إليهم الناس ، ضا بة بثهم ، ومحافظة عليها .  
ولعل المتصور بالبنيان كالذى نشاهده في عصرنا من إقامة دنم حول قبر الميت وتحويطه .

محكم التركيب . فانه سبحانه وتعالى عند ما يريد أن يظهر آياته في الآفاق يهيء من الأسباب العقلية ، والمقدمات البرهانية ، ما يبهى المؤمنين ، ويمحق مكابرة المعاندين .

اتخاذ قبورهم رمزاً للعبادة

---

قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا

---

فالإله الرحيم بعباده ، الذي يجازى المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ، لا يمكن بحال من الأحوال أن يضيع أجر من أحسن عملاً ، وكيف يتأتى ذلك من الأحد الصمد ، المنزه عن الهوى والغرض ، فانه جل علاه قد كرم أصحاب الكهف وشرفهم أحياء بتثبيت عقيدتهم . ونياماً بحفظ أجسادهم من البلى ، وأيقاظاً برفع ذكرهم ، وتمجيد أشخاصهم في دولة الإيمان ، كما كانوا كذلك ، قبل طغيان دقيانوس في دولته الملحدة ، وأمواتاً باتخاذ قبورهم مكاناً للتطهر والعبادة ، لتكتنفهم فيوضات الوجدانية أحياء وأمواتاً ؛ أما في الآخرة ، فأى سعادة تنتظر مطيبتهم ، وأى جلال يفسح لهم رحابه في جنات الفردوس ، يحلون فيها من أساور من ذهب ، ويلبسون ثياباً خضراً من سندس وإستبرق متكئين فيها على الأرائك ، نعم الثواب وحسنت مرتفقاً

ومن ثم يتبين أن اتخاذ المساجد على قبور الصالحين لم يكن وليد العصور الأخيرة ، وإنما كان مألوفاً منذ أقدم العصور ، وذلك في الواقع أبلغ تكريم لأولئك الذين تفانوا في عبادة ربهم وطاعته .

## الاختلاف في عددهم

سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ، (١) وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ ، رَجْمًا بِالْغَيْبِ ، وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامَنُهُمْ كَلْبُهُمْ

ومن الأدلة التي لا تقبل النقاش على عظمة أهل الكهف ، وبلوغهم أعلا درجات الكمال والرفعة في الدنيا والآخرة ، اختلاف الناس في أمرهم اختلافا تناول جميع النواحي التي هي عرضة للاختلاف ، ومن بين هذه النواحي عددهم مطلقا ، وكلبهم ضمنا . وأيم الحق إن تعدد ذكر الكلب في الوقت الذي لم يشر فيه إلى دقيانوس لاتصريحا ولا تلميحا لمن البراهين على أن الحيوانات اللاعاقلة مهما بلغ الحكم في نجاستها أو طهارتها ، أفضل من الكافر العاني « إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا » .

(١) « سيقولون » : الضمير في الأعمال الثلاثة للخائفين في قصتهم ، في عهد النبي عليه الصلاة والسلام ، من أهل الكتاب والمسلمين ، سكن لأعلى وجه إسناد كل منها إلى كلبهم ، بل إلى بعضهم « ثلاثة رابعهم كلبهم » أي هم ثلاثة أشخاص رابعهم ، أي جعلهم أربعة بانضمامه إليهم كلبهم ، قيل : فأنته اليهود ، وقيل : قاله السيد من نصارى نجران ، وكان يعقوبيا ، وقرى : « ثلاثة بادغام الثاء في الثاء » . « ويقولون خمسة سادسهم كلبهم » قيل : قاله النصارى ، أو العاقب منهم ، وكان استغوريا . « ربا بالغيب » رميا بالخبر الحق الذي لا مطلع عليه ، أو ظنا بالغيب ، من قولهم : رجم بالظن ، إذا ظن ، وانتصابه على الحالية ، من الضمير في الفعلين جميعا ، أي راجين ، أو على المصدرية مهما ، فإن الرجم والقول واحد أو من محذوف مستأنف ، واقع موقع الحال من ضمير الفعلين معا ، أي يرجون رجاء ، وعدم إيراد الدين للاكتفاء بطفه على ما فيه ذلك . « ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم » هو ما يقوله المسلمون بطريق التلقين من هذا الوحي ، وما فيه مما يرشد إلى ذلك من عدم نظمه في سلك الرجم بالغيب ، وتفسير سبكه بزيادة الواو المفيدة ، لزيادة وكادة النسبة ، فيما بين طرفيها ، لا يوحى كما قيل .

## بيان أسماؤهم

قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ <sup>(١)</sup>

لأنزاع في أن الله وحده هو الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، فإذا أراد جل شأنه أن يكشف عن مكنون غيبه إظهاراً لربوبيته القادرة ، هياً عبادةً لهذا الفضل العظيم ، يطلعهم بمقاييس عليية وعقلية ، يهديهم إليها ، على القدر الذي به يستقر الحق في نصابه ، ويبدد عن الأرض حوالك العماية والجهل ، ويتخذ هؤلاء العلماء من معرفتهم مشعلاً يضيئون به للجهلاء ما أظلم أمامهم من مسالك الهدى والرشاد ، فمن كان مستعداً للفهم والإدراك <sup>(٢)</sup> ، اهتدى بهديهم ، وتجنب المزالق الخطرة ، ومن كثفت في قلبه نسج الغواية المادية ، لا يستطيع تكيف الحقائق ، بل لاتزيد الأدلة إلا جحوداً وعماية ، وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً . .

فللعلماء في كل العصور آثار خالدة ، فما انتشرت دعوة إلا ولهم في نشرها ضلع ، ولا نجح الزعماء والقادة إلا بجهودهم ، ولا ازدهر عمران إلا على أكتافهم ، وبقواهم العقلية الموقفة ، وشدة تأثيرهم في الأفراد والجماعات .

(١) « إلا قليل » : من الناس ، قد يفهم الله تعالى الاستشهاد بذلك النوامد ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : حين وقعت الواو انقطعت المدة ، وعليه مدار قوله رضي الله عنه : أنا من ذلك القليل ، ولو كان في ذلك وحى آخر لما خفى عليه ، ولما احتاج إلى الاستشهاد بالواو ، ولكان المسلمون أسوة له في العلم بذلك ، وعن علي كرم الله وجهه : إنهم سبعة نفر ، أسماؤهم : ( يمينيخا - ومكشينيخا - وسليبيخا - هؤلاء اصحاب يمين الملك ، وكان عن يساره : مرنوش - وديرنوش - وشاذنوش - وكان ينشئ هؤلاء السبعة في أسره ، والسابع الراعي الذي رافقهم حين هربوا من ملكهم « دقبانوس » واسمه : كفيشيطيوش . .

(٢) انظر ص ٣٩-٤٠ عند تقسيم العقليات .

النهي عن التعميق في المجادلة فيهم

فَلَا تَمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مَرَاءَ ظَاهِرًا، وَلَا تَسْتَغْفِرْ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا (١)

فقد تظهر الحقائق ظهور الشمس في رائعة النهار ، حتى لتعتبر المماراة فيها ضرب من المكابرة والانتصار للباطل ، ولما كان المكابرون الذين حزنوا عن الانقياد للعلماء ، قد رضوا لأنفسهم الارتكاس في حماة المهانة والسفه كان جدالهم لا طائل تحته ، لأن كل برهان قد يستحيل في عقولهم المادية إلى لا شيء ، وسرعان ما يتبخر ، ويتبلور بما وصل إليه تصورهم المعكوس ؛ وهناك كثير من العوامل التي تقصرهم على الاندفاع وراء أهوائهم : منها الغرور بثقافتهم ، ومنها مما سيمر بك في مظاهره ، حتى لم يبق في المكابر ذمء من مميزات الإنسانية المهذبة المؤمنة . ومن ثم فمجادلة هؤلاء لا تأتي إلا بنتيجة عكسية ، ولذا فالأجدر إزاء جمودهم أن يجادلوا بالقدر الذي حدده الوحي ، كي لا يتشعب الجدال ، ويخرج عن نطاق المعقول ، فان انقادوا للوحي ، وشعت أضواؤه في قلوبهم ، وإلا فقد كفاهم ما انحدروا إليه من الجهل والاعتماد على الخيال ، وهذه أرفع تربية في مجادلة الجاهلين الحق .

(١) « فلا تمار » الفاء لتفريع النهي على ما قبله ، أي إذ قد عرفت جل اصحاب القولين الأولين - القائلين : ثلاثة ، وخمسة ، فلا تجادلهم « فيهم » في شأن الغيبة « إلا مراء ظاهرا » قدر ما تعرض له الوحي من وصفهم بالرجم بالغيب ، وعدم العلم على الوجه الاجمالي ، وتخويض العلم إلى الله سبحانه من غير تصريح بجهلهم ؛ وتفضيح لهم وقانه مما يخل بمكارم الأخلاق « ولا تستغفر فيهم » في شأنهم « منهم » من الخائضين « احدا » فان فيما قص عليك لندوحة عن ذلك .. الخ

آيات توضح حقيقة ما ففى صدر أمر أصحاب الكهف

مطالبة العباد تفويض علم الغيب إلى الله

وَلَا تَقُولَنَّ لشيءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (١)

فمن يتدبر فى ريث وأناة التقلبات التى لا بست أهل الكهف ، من صراع بشرى ، ولطف إلهى ، فإنه يتضاءل فى ذات نفسه ، ويشعر بعجزه عن تصريف شؤنه الخاصة والعامة ، ويرى إصبع القدرة لا تنفك عنه طرفة عين ، وتبرز فى كل حركة وسكنة ، غالبية فعالة .

فقد تصادف الناس أشياء لا حصر لها ، ترتبط بحياتهم ارتباطاً يرتفع وينخفض بنسبة أهمية الشيء وتفاهته ، فتارة يتصل بالعقيدة ، وتارة بالخلق الفردى ، أو الخلق العام ، وتارة بالحركات والسكنات ، من : قيام وقعود ، وصحو ونوم ، وأكل وشرب ، وصفو وكدر ، وحل وترجال ، وصداقة وخصومة ، وأخذ وعطاء ، وإقراض واستقراض ، وتضاييف واستضافة ، وحرب وسلم ، وفقر وثراء ، وعبوس وابتسام ، وصمت وتحدث ، وتآخ وتناذ ، وعدوبة وتزواج ، وعنوسة وترمل ، وصفح وعقاب ، وفرض وواجب ، وسعال وتفل ، وبراز وبول ، وعرى وكس ، وحفاء وتنعل ، وصبر وشكوى ، وأمل وزهد ، ورفه وتقشف ، وجراءة وحذر ، وشجاعة وجبن ، وعزم وخرق ، وإقدام وإحجام ، وبخل وسخاء ، ومنع وإعطاء ،

(١) « غداً » أى فيما يستقبل من الزمان مطلقاً ، فيدخل فيه الغد دخولا أولياً ، فانه نزل حين قالت اليهود لقريش سلوه عن الروح ، وعن أصحاب الكهف ، وذى القرنين ، فسألوه عليه الصلاة والسلام ، فقال : ائتنونى غداً اخبركم ، ولم يستثن ، فأبطل عليه الوحى ، حتى شق عليه ، وكذبت قريش

واققتصاد وإسراف ، وتقدير وبذل ، وتعاقب وقسح ، ووصل وشجر ، وقسوة  
ورحمة ، وشدة ولين ، وغضب ورضا ، وهزيمة ونصر ، وما إلى كثير مما  
ذكر ، وما لم يذكر من كل ما يدور عليه محور الحياة . ولا تنتظر شئونها ، أو  
تقوم لها قائمة حتى يوضع في سياق محكمة ، يقرها العقل ؛ وإن من يبسط  
تحت نظره الظروف التي تحوطه ، القائم منها فعلا ، وما يجد من وراء  
الغيب ، ويتأملها بتبصر وهدى ، وينجى عن قلبه غشاوة الشك ، وصدأ  
الجهل والغباء . فإنه يتحقق أن ثمة قوة قادرة حكيمة ، تهيم على الأكوان ،  
وتسيرها على وتيرة منظمة ، لا يتطرق إليها أدنى خلل ؛ وأن ما يقوم في  
روع الجهال من أنهم القادرون على أمورهم كلها ، في الماضي والحاضر  
والمستقبل ، ما هو في الواقع إلا ضرب من الوهم ، يرجع شبيهه إلى فساد في  
العقيدة ، لأن الإنسان ، وإن كان في وسعه - بحكم ما أودع الله تعالى فيه من  
عقل وإرادة - أن يحرك مقلته ، أو يرهف سمعه ، أو يرفع يده ، أو ينقل  
قدمه ، إلا أنه لا يملك قوة الإبصار ، أو قوة السمع ، أو قوة تحريك اليد  
والقدم ، كما أنه بداهه لا يملك لنفسه : حياة ، ولا موتاً ، ولا نشوراً .

وهذا درس إلهي من دروس لا تحصى . انشعبها حسب الظروف  
والملازمات - في تربية العقيدة والأخلاق ، وسد الذرائع التي تعقد أمور  
الناس وأحوالهم ، وتشيع فيها الإهمال والفساد .

فمتى وثق الإنسان أن دورة الزمان بيد الله ، وأن ما كان يخبئه الأمس ،  
وما يخبئه الغد متأد لغلم الله سبحانه بكنهه وعناصره ، كما تتأدى المبهضات  
لعلم البشر من حيث مظانها المادية والمعنوية ، بل إن هذا ليس كذلك تماماً ،  
إذ كثيراً من المشاهدات ، قد يدق فهم أسرارها على الأذهان ، فإذا وثق  
الإنسان في ذلك تورع أن يدعى لنفسه استكناه الغيب ، والتجرو على إحالة



الحاضر على المستقبل ومنزجها ، كأنما اطلع على قضاء الله ، واطمأن إلى أن الغد سيحل ، وهو بمنجاة مما يتعرض له الأحياء ، من حادثات السقم أو الحما ، ولجاءات القدر ، وما يحمله في طياته من صدمات ليست داخلة في حسابان البشر ، فكثيراً ما يكون المرء بين أخلائه معافى ، يفيض بشراً ، وأملاً ، وصحة : يدبر أمورهم ، ويحل مشاكل ، ويصرف شئون ، ويرجى إلى الغد ما يشاء ، مثبت جازم ، فلم يكذب يروح مجلسه إلا محمولا ، فاقد الحس ، مضعضع القوى ، وكثيراً ما يبيت الإنسان للغد خطة محكمة ، يدرس ملابساتها ومحتملاتها من جميع النواحي ، ويتأكد له صلاحيتها للتنفيذ ، حيث استقامت موادها ، ورتب لها المقدمات ، وهياً الأهبة ، ولم يبق سوى حلول الغد ، - كما صح في وهمه - وهو الظرف الذى وقع عليه اختياره ، لإخراج خطته إلى حيز الوجود - فإذا أهل الغد ظهر إصبع القدرة الإلهية ، وغشت أفكاره آراء جديدة تقلب خطة أمسه رأساً على عقب .

وليس معنى ذلك تعطيل الحياة ، وشل حركتها ، ووقف دورة الأعمال الأهلية ، وفي الوزارات ومصالح الحكومة ، تلك الأعمال الآلية ، الموهونة بأوقاتها ، فمثلاً يصاغ قرار التوظيف أو العزل ، لسبب من تلك الأسباب المعروفة ، ويرفع إلى الرئيس ليوقع عليه ، وينقل من قلم لآخر ، حتى يتم تنفيذه في زمن يطول أو يقصر ، حسب الظروف التى تمر بالقرار اتئاداً أو استعجالاً ، فإذا توهم الإنسان أنه بحوله وتديره تسير الشئون ، وتنظم أحوال الاجتماع ، فإنه بهذا الزعم الخاطئ ، يخالف سنن العمل ، ويبيح لنفسه من صفات القدرة ما لا يدخل تحت طوق البشر ، ويضع عقيدته مواضع الاتهام ؛ فالمرءوس تحتم عليه وظيفته أن يتناول القرار ، ويملاً

فقراته ، وينقله إلى موظف آخر يختص بالمراجعة أو التسجيل ، وهكذا حتى يأتي دور الرئيس الذي يتناول القلم ، ليؤشر على القرار ، كي يصبح نافذاً .  
فإرادة الرئيس والمرءوس ، وتحريك الجفن واليد ، والانتقال ، والمحور والتسجيل من صنيعهما ، غير أنه تنقصهما القوة التي تمد المقلة بالضوء ، والأيدى والأقدام بالحركة ، الخ . ألا تذكر قصة ذلك الحاكم الثائر الذي وقع غريمه في قبضته ، فأمر بقطع عنقه ، وتهايات أسباب الإعدام ، من : سيف ، ونطع ، وقبل أن يهوى الجلابيده ، تأتى البراءة الإلهية ، فيشق أجواز الفضاء صوت المؤذن ، ولم يجد الحاكم بدا من إرجاء التنفيذ حتى يؤوب من صلاته ، بيد أنه لم يكبد بسجد ، حتى يبرز من بين المصلين من يغتال الحاكم ، فيصير في الهالكين ، وبنجو أسير بين فيكي المنون ، لا يتصور أحد نجاته ، وسبحان الفعال لما يريد .

فالنهي والحالة هذه يدور حول إشعار الإنسان بعجزه ، وأنه لا يملك إمضاء ما يعزمه ، حتى ولو نوى القيام من مجلسه . وليس هناك ما يحول بينه وبين ما انتواه ، فإنه لا يستطيع ذلك ما لم يشاء الله ، وإذا وضع الإنسان مشيئة ربه القادر دائماً نصب عينيه ، برئت عقيدته عن التوهم أن في طوقه التصرف في رغباته ، سواء ارتبطت بحاضر الزمان أو مستقبله .

تقرير أن شيئاً لا يتم بغير مشيئة الله

## إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ

فكل ما يطويه الزمان : الماضي ، والحال ، والمستقبل في أضيائه ، بماله ارتباط بالعالم العلوى أو السفلى ، إنما هو لا يقع إلا بمشيئة الله تعالى ، ولو

توقف إنفاذه على شخص معين ، سواء توهم أن ماتم بإرادته وحوله ، أو  
اعتقد أنه إنما يستمد الحركة من يده الموت والحياة .  
علاج من ينسى الاستثناء

## وَإِذْكَرَّ رَبُّكَ إِذَا نَسِيتَ (١)

ولما كان الإنسان عرضة للنسيان ، لم يأخذ الله عليه مسالك الأمل في  
رحمته وغفرانه ، إذا عرض له شأن من شئونه المستقبلية ، ونسى أن يكل  
أمر تنفيذها إلى مشيئة خالقه العظيم .

وهذا من الأدلة القائمة الملموسة على تنزهه جل شأنه عن الأهواء  
والأغراض ، لأن الإله القادر الرحيم ، أكبر وأعلى ، من أن يعاقب  
الضعيف العاجز على حقوة لا يلبث أن يتداركها .

تضييق حلقات العوز على المحدود ، فيم صوب ذى حيثة يلتبس في  
رحابه العون ، فيمنه بالمساعدة ، ويحيله إلى الغد ، ويطلب صانع إلى زميله  
أن يتجه من غده إلى مصنع يعينه له ، ليناول فيه عملا ، ويتحقق صديقان  
على نزهة خلوية بإحدى الحقائق من يومهم أو غدهم ، ويتخذها لها الأهمية

(١) « واذكر ربك » بتذكرك إن شاء الله متداركاً « إذا نسي » : إذا فرط  
منك نسيان ، ثم ذكرته ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما : ولو بعد سنة ما لم يحنت ،  
ولذلك جوز تأخير الاستثناء ، وعامة الفقهاء على خلافه إذ لو صح ذلك ، لما تقرر إقرار ،  
ولا طلاق ، ولا نكاح ، ولم يعلم صدق ، ولا كذب . قال الفرطى : هذا في تدارك التبرك ،  
والتخلص من الانهم ، وأما الاستثناء المغير للحكم ، فلا يكون إلا متصلاً ، ويجوز ، أن يكون  
المعنى : واذكر ربك بالتسبيح والاستغفار ، إذا نسي الاستثناء مبالغة في الحث عليه .  
أو اذكر ربك وعقابه إذا تركت بعض ما أمرك به ، ليعثك ذلك على التدارك ، أو اذكر  
إذا اهتراك النسيان ، لينذكرك المنسى ، وقد حمل على أداء الصلاة المنسية عند ذكرها .

من مطعم وملبس وآلات تصوير . وما إلى ما هو مألوف لدى الرحاة  
المتريضين . فيبر ذو الحيثة ويفرج كرب المملق المحتاج ، ويعمل الصانع  
المتعطى ، ويتريض الأخلاء ، فإن كان الإنسان طبع الفعل بطابع العمل ،  
إلا أنه لم يتم إلا بمشيئة الله الذى أعان عليه ، فمن توهم أن بحيلته نفذت  
إرادته ، فقد دلى على غبائه ، وفساد عقيدته ، أما من هفا نسيانا ، وذكر على  
الفور خالقه ، فإنه يسلم بعقيدته من شطحات الظنون  
مطالبة العباد بالتطلع دائماً إلى هداية الله المتجددة

---

وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا (١)

---

فهما طال بالإنسان العمر ، ومهما ضلع من العلوم والمعارف ، فهو  
دائماً فى حاجة إلى المزيد من هداية الله وإرشاده ؛ وعلى هذا فإنى أرجو أن  
لا يكون ما ذهبت إليه مخالفاً لما ذهب إليه علماء التفسير ، مما استنبطوه من  
قوانين اللغة ومرامياها ، فليست معانى القرآن واقفة عند غاية ، فقد تطبق  
الآية الواحدة على جميع حالات الدنيا : دينية ، وتاريخية ، وأخلاقية ،  
وسياسية ، واقتصادية ، وتنسحب إلى الآخرة ، فتشمل حالاتها من :  
سعادة وشقاء .

فكما أنها تتسع للمعانى التى ذهب إليها جلة العلماء فى تفاسيرهم ، فقد تسع  
المعانى التى يذهب إليها الكتاب فى المجلات والصحف ، وفوق منابر الخطباء ،

---

(١) « وقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّي » أى يوفىنى « لأقرب من هذا » أى لشيء أقرب  
وأظهر من نبأ أصحاب الكهف من الآيات والدلائل الدالة على نبوتى « رشداً » أى  
إرشاداً للناس ، ودلالة على ذلك ، وقد فعل عز وجل ذلك حيث آتاه من البينات ما هو أعظم  
من ذلك وأبين ، كتخص الأنبياء المتباعدة أيامهم ، والحوادث النازلة فى الأعصار المستقبل ،  
إلى قيام الساعة ، أو لأقرب رشداً ، وأدنى خبراً من النفس .

وفيها يستشهد به المؤلفون في الفنون التي يطرقونها ، فإذا قيل : إن الآيات التي نحن بصدددها تسع المعاني التي أشار إليها التفسير كانت كذلك ، وإذا قيل : إن منها استمدت الحكمة الماثورة : لا ترجى . عمل اليوم للغد ، كانت كذلك . فالقرآن يحق دستور الإنسانية ، وسابق الزمان في تنظيم أحوال العالم منذ نشأة الدنيا ، وكم فيه من حكم سيتمخض عنها المستقبل ، تولد مع حاجة الخلف إليها .

بيان المدة التي مكثها أهل الكهف

وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (١)

هذا ، وإن من مميزات الناس ، وعجيب تكوينهم الفطري ، أنهم طبعوا على حب الاستطلاع ، ومقابلة ما يقع تحت حسهم ، وما تبصره أعينهم أو تسمعه آذانهم بالجدل والنقاش : تارة بالحدس والتخمين ، حسب تبلوره في أمرجتهم وعواطفهم التي ورثوها ، أو اكتسبوها من عقيدة أو ثقافة أو ما إليها ، وهؤلاء قد تذهب بهم الظنون مذاهب شتى تحمل في الغالب طابع الباطل الذي لا يدعمه دليل من حقيقة أو برهان ، كذلك الطوائف التي نأت في أمر أصحاب الكهف ، إلى ما أملت عليه الأهواء ، وتارة بما اقتنعوا به من النصوص التي أبانت عن حقيقة أمرهم بياناً لا لبس فيه ،

(١) « ولَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ » مفعولاً ، مفعولاً على آذانهم « ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعاً » : وهي جملة منققة ، مبنية لما أجمل فيما سلف ، وأشير إلى عزه مثاله ، وقيل : إنه حكاية كلام أهل الكتاب ، قالهم اختفوا في مدة لبثهم ، كما اختفوا في عدتهم ، فقال بعضهم هكذا ، ويظهر ثلاثمائة . وروى عن علي رضي الله عنه أنه قال : عند أهل الكتاب أنهم لبثوا ثلاثمائة سنة شمسية ، والله تعالى ذكر السنة القمرية ، والتفاوت بينهما في كل مائة سنة ثلاث سنين ، فيكون ثلثمائة ، وتبع سنين .

خالياً عن مين الأساطير ، ومحرراً الوقائع التاريخية تحريراً رصيناً ، بعيداً عن الخيال البشرى ، والشطط العاطفى ، وهؤلاء بحكم تربيتهم التى اكتسبوها من هذه النصوص ، ينظرون إلى الأخبار الماضية والمستقبلية فى ظرفها الزمنى ، والمكانى ، كأحد ما يكون النظر ، وكأنهم يشاهدونها ويلسونها فى حاضرهم ، لا استدراكاً للخيال ، ولكن اقتناعاً بالمقال ، لأنهم لم يلسوا فيه عوجاً ، ولا اختبروا عليه ضلال ، ونطقت جميع الملابس بجلاله ، وصدق ما شتمل عليه من أخبار وأحكام ؛ أما الإرشاد ، فإن السمو والعزة والرفعة والإباء والكرامة والفضيلة ، وما إلى ما لا يحصى عدداً من الصفات الإنسانية الممتازة ، فالشمس بأشعتها وضوئها الوهاج ، والقمر بنوره الوداع ، والكواكب بلالاتها ، دون ما يشع من سنا هذه الإرشادات ، وما يتضوع من هديها الرفيع ، لذلك كان حرصهم على الاقتناع بأخبار هذه النصوص ، لا يتدأنى إليه حرصهم على مقالمهم ، وفلذات أكبادهم ، كتلك الطائفة التى أصابت كبد الحقيقة فيما اختلج فيه أصحاب الكهف من تململات ، وإن أصدق وصف لشعور الطائفة الخيالية : «الوهم العاطفى ، كما أن أصدق وصف للطائفة المثبتة ، الاقتناع اليقيني ،

إلفات الناس إلى أن لله وحده غيب السموات والأرض

---

قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

---

فقد ينخر وصب الإلحاد بالأغبياء ، فلا يتجاوز تصورهم الأفق المادى ، فى استكناه الغيب ، وذلك يجرهم قطعاً إلى إنكار ما وراء الماديات من المارح الغيب العام ، ويتشبثون بأوهامهم تشبثاً ، يقضى على مثاهم العليا ،

ويسدل على بصائرهم غشاوة لا يتمكنون معها من تجنب المخاطر التي تولد مع انفلات بهيميتهم رعناء شامسة ، وبذلك يهددون الأخلاق ، والنظم الاجتماعية ، ويحنون على العقائد خصوصاً ، وعلى الفضائل عموماً جنائيات لا غاية لها إلا سوء السعير ، لأن من ينكر غيب الله تعالى ، فإنه يتعذر عليه التحفظ في الطاعة والخضوع ، والتحرز عن الموبقات ، ومن ثم يخطئ في الجرائم يخطئ عشواء ، غير ناظر إلى ما يترتب على عبثه من نذر العقاب . فيضرب في الأرض بقدم مرح ، وبدعات ، ولسان سليط ، وعين فاجر ، وأذن شرير أحمق ، ولذا أراد الله جل وعلا ، أن يبين لعباده الأسباب التي يزر منها قرن الآثام كي يأمنوا الارتعاش بها ، ووضع قواعد التعبد في الفضائل والآداب في الأخلاق ، والكمال في الإيمان ، والاتزان في التقوى ، والعزة في التوحيد ، وجنى عليه المطلق في حالات البشر خاصة ، وفي مظاهر السموات والأرض عامة ، ومن من العقلاء يطلع على هذه الحقيقة ولا يراقب الله في السر والعلانية ، وينأى عن الشرور ، حتى ولو تقطعت به عن العمران البقايى والوديان (١) ..

من صفات الوجدانية

## ابْصُرْ بِهِ وَأَسْمِعْ

فلو خلا بنفسه هذا المنذر الذي اجترم في حق مولاه جريمة تخر منها

(١) إلى حينما كنت أكتب هذا البحث أتأمل في هؤلاء الملاحدة الذين هم بين ظهرائنا ، وما يصرحون به في محادثاتهم وكتاباتهم مما لا يتفق ومقام الألوهية المقدس . وأتأمل بنوع خاص تلك المبادئ الشريرة التي تحدى بهم نياماً وأيقاظاً ، رأى ضلال يخطأهم إليه الالحاد ، احط واشنع من انهم لا يكلفون انفسهم التدبر في الأسرار الكونية ، حتى ولا التشرف بلمس كتب السماء .

الجمال هذا ، ونسب إليه تعالى صفات الحوادث ، وأطال التفكير فيما نطق به القرآن العظيم ، شاهداً على وحدانيته ، وجلاله ، لما أثلج أوار ندمه أن يعصر أماقيه عبرات منمهرة ، ومشاعره لهباً نائرة ، وقلبه نثاراً متقددة ، ونفسه حسرات مشتعلة .

أجل إن من شرائط المعبود واجب الوجود ، أن يكون له غيب السموات والأرض ، وأن يكون متصفاً بالبصر والسمع ، فالإلهية الحققة تتوافر لها جميع خصائص القدرة الغالبة ، والقوة القاهرة ، والعلم الشامل ، وهذا ما وضحه القرآن توضيحاً لا مجال بعده لشك أو ريب . ولعمري ، لو أن حرفاً واحداً نقص منه عما هو عليه ، لترك مكان هذا الحرف فراغاً ، ينفذ منه التردد والحيرة . ولكنه الهدى الرباني انطبقت عليه دفتيه ، ولقد لمس العقلاء من كتاب الله هذه الحقيقة ، فأقروا بوحدانية منزله جل شأنه ، مؤمنين خاشعين يعملون الصالحات ، فاستحقوا البشرى بالرضوان القدسي ، والنعيم الأبدى ، وكانوا من الفائزين .

إلفات الناس إلى أن لا مفر لهم من خالقهم

---

مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا

---

فأينما شطحت الخبائث بالإنسان ، ودار حول شهواته ، فلا مناص له من الإياب إلى المولى عز وجل ، إما مكرماً ، طاهر الذيل ، ميمون النقيبة ، مرفوع الرأس ، مطمئن القلب ، رضى النفس ، يشع نوراً وفرحاً ، وإما مجرماً شريراً خائر النفس فزعاً ، ترهقه ذلة ، وتغشاه ظلمة ، نادماً تتضمنه



الحسرة قضا . وهذا هو الحق الصراح . سواء أقر المنكرون الحق ، أم لم يقرؤا « فلا ملجأ من الله إلا إليه » .

آيات ترتبط بما تقدم - الأسباب الموهبة للبشارة

الأمر بالمداومة على دراسة القرآن وتدبره

---

وَأَنزَلُ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابٍ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ

---

وإذ علمت ذلك فاعلم أن دراسة القرآن الكريم وتدبره يستخرج سخيمة النفوس ، ويبرىء دخل القلوب ، ويصوغ الإنسان في قالب من السمو والكمال ، فيعيش مثالياً ، ينظر إلى الأشياء كما هي ، دون إفراط أو تفريط ويعب من المعلومات الدنية والكونية ، وتتداني إليه آفاق السموات والأرض ، لأنه لولا القرآن الجليل ما علم شيء مما كشف عنه النقاب ، واطلع عليه العباد ، لثلا يؤخذوا على غرة ، ويقضوا صبراً ، في مكبلات الجهالة العمياء .

تقرير أن المصير إليه تعالى لا محالة

---

وَلَن تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا

---

فقد تتضافر على الإنسان مظاهر الحياة ، وتشتعل في نفسه مفاتها ، فإذا لم يحزم أمره ، ويقابل هذا الخطر الداهم بكياسة ، وتدبر محكم ، ويتخذ من هدى السماء وقاية له من الرسوب في أعماقها السحيقة ، فإنه لا يلبث أن تغشى

قلبه حجب كثيفة تمنعه عن استشراف حقائق الغيب ، وتقصره على إنكار ما وراء هذه الحياة من عالم الآخرة ، حتى إذا أتم المدة المقدرة لبقائه الدنيوى ، ويستسلم للحمام ، فإنه فى هذه الحالة يدخل فى الطور الأخرى الذى صورته كتب السماء ، ويظهر له ما كان خافياً عليه من أوصافها ؛ ومن ثم يود لو نهج سبيل المؤمنين الذين كانوا لا يستريبون فى أنه لا ملتحذ من دون الله ، فاتقوا نوازع الهوى ، وغواشى الضلال ، ولجأوا إلى الله وحده عند نوازل الأحداث ، وملأت البلايا .

منزلة الموحدين عند الله

---

وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ  
يُرِيدُونَ وَجْهَهُ (١)

---

وإن من يقدر المقومات الإنسانية التى تحفظ كيانها ، وتصد عنها تيارات العبث والانحطاط ، فإنه لا ينفك عن سياجها ، ولو تحمل فى سبيل ذلك كل عناء وكبد ، ويستمر صاعداً فى مدارج الروحانية : يؤمر فيصدع ، ويدعى فيلبى ، لا يترخص فى غير رخصة ، ولا يتهازن فى قليل ولا كثير مما تفرضه قوانين الطاعة والأخلاق ، ولا يأخذ من الدنيا إلا بالتقدير الذى يحفظ

---

(١) « واصبر نفسك » : احبسها وثبتها مصاحبة « مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي » أى دائبين على الدعاء ، فى جميع الأوقات ، وقيل : فى طرفى النهار ، وقرئ : بالفدوة . على أن إدخال اللام عليها وهى تحكم فى الأقلب على تأويل التنكير ، والمراد بهم فقراء المؤمنين ، مثل : صهيب ، وعمار ، وخباب ، ونحوهم رضى الله عنهم : وقيل أصحاب الصفة ، وكانوا سبعمائة رجل . قيل : إنه قال قوم من رؤساء الكفرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم : نَحْ هؤُلاءِ الموالى الذين كأن رِيحَهم ريحُ الضأن حتى نَجالسكَ ، كما قال قوم نوح عليه السلام : « أنؤمن لك ، واتبعك الأرذلون » فزلت « يريدون » بدعائهم ذلك « وجهه » أى مرادين لرضاء تعالى وطاعته .

الحياة . ولا يجد السعادة الحقة إلا في تعاليم الله جل وعلا ، ويحرص كل الحرص على أن يطبق أوامر القرآن عملياً ، وهو كلما أمعن في دراسته وتدبره ، ازداد صعوداً ورفعة .

يقول القرآن للإنسانية : « لا إياك أن تقدمي تنهاري ، ويقول لها : « نعم ، إياك : أقدمي ، لا تراعي : مهيجان : حضيض ، وسماء :

يقول : « لا ، أي لازنا ، لاخر ، لا ميسر ، لا قتل ، لا ظلم ، لا جبروت ، لا غش ، لا خدياع ، لا زور ، لا كذب ، لا نغمة ، لا تبذل ، لا رياء ، لا تملق ، لا باطل ، لا آثام ، أي لاحضيض ، أي لاجهنم .

ويتول : « نعم ، أي : عفاف ، وقار ، كرامة ، عدل ، تواضع ، نزاهة ، اعتدال ، قصد ، صدق ، نبل ، إباء ، شهامة ، ترفع ، نباهة ، فضيلة ، أي سماء ، أي جنة .

فسار المؤمن لا ينوي على شيء متجهاً نحو خالقه ، غير متعاس ولا وان تسعده البشرية كلما رن جرسها في أذنه .

تتبرير أن المؤمنين هم المثل الأعلى

## وَلَا تَعُدُّ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ<sup>(١)</sup>

فما هو موضع الاتفاق أن الإنسان ، كلما صلح أمره ، واستقام حاله ، وحسنت سيرته ، وخشى الله في سره وعلنه ، فانه يكون موضع الحب والاحترام من مخالطه ، ومحل الثمة ممن يعامله ، يتأكد هذا المعنى واضحاً من أمر السماء لسيد البشر عليه الصلاة والسلام أن يكون أقصى ما يطمح

(١) « وَلَا تَعُدُّ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ » : أي لا يجاوزهم نظرك إلى غيرهم ، من عدوته إلى الأمر أي صرفته عنه . وفري : وَلَا تَعُدُّ عَيْنَاكَ ، وَلَا تَعُدُّ عَيْنَاكَ ، من الاعداد ، والتعدية ، والمراد نهيه عليه السلام عن الازدراء بهم ، لثلاثة زيمهم : طموحا إلى زى الأغنياء .

إليه بنظره ، وأولى من توليهم عنايته واهتمامه ، أولئك الذين فهموا دعوة الشريعة ، وانصاعوا لمستورها القويم ، وإذا كان الخطاب موجهاً إلى إمام المرسلين ، وسيد المتقين ، ومنقذ البشرية من سيعر الضلال ، فإنه من باب أولى توجيه عام لكل العالم في عصوره المختلفة أن لا ينفك عن ملازمة البررة وتنبع خلوواتهم .

من علامات التأثر بالدنيا وخذعها مصاحبة الأشرار

### تُرِيدُ (١) زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فإن من يقلب صفحات ما سلف فإنه حتماً سيقف عند هذه الآية الكريمة : « إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها » وما كان للفرقة المندرة الهالكة ، إلا أن تندس في حمأة الشهوات حتى تصدمهم الحقيقة التي لا يستطيعون إنكارها ، تزعجهم دائماً ، كلما رفرفت أجنحة الفناء ، فإذا أنعمت النظر في الآية الشريفة التي نحن بصددتها (٢) ، فإنها تفتح أمامك آفاقاً من المعاني الجليلة ، وتذكرك على أن انباع الأشرار ومصاحبيتهم حائز على الرغبة في زينة الحياة الدنيا ، وملاذها ، لأنهم بسوء تصرفهم ، وقصور عقليتهم ، وفساد طويتهم ، رضوا أن ينفردوا بتمثيلها أحط تمثيل ويقف تصورهم عند حدودها ، ويتقاربوا في أعطافها ، ويتناسوا

(١) « تريد زينة الحياة الدنيا » أي تطلب مجالة الأنسraf الأغنياء وأصحاب الدنيا .

(٢) لا ريب في أن من تستيقن نفسه هذه الآية الكريمة فإنه ينض طرفه عما لاحق له

فيه مما متع به غيره . فتي بأن هؤلاء الذين يترصدون النساء في الطرقات والمحال وما إليها فيلهبون بأبصارهم ، وبذئ غريزهم . ومتى بأن كذلك هؤلاء الذين ينتهبون الحقوق التي كان نوعاً أن يأخذوا أنفسهم بأداب القرآن العالية ، وتواضع الرقيمة ، ليدسروا بالمجد والكرامة ، ويعيشوا حياتهم في أفياء الرقة والطمانينة .

في تجرع كأسها حتى الثمالة ، وكفى هؤلاء حقارة ، سخط خالقهم عليهم ، ونهى رسوله الأمين عن معالجة أمرهم ، بعد تأدية الرسالة ، ومميز الهدى من الضلال ، وذلك فيما أمره به ربه من ملازمة المؤمنين .  
الحكم على الأشرار بالغفلة وانفراط الأمر

وَلَا تُطْع مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا<sup>(١)</sup>

وهذا تأييد لما ذهبنا إليه في الآية السابقة ، وأى سحق تردى فيه من يعيش تحت سلطة قلب غافل ، ويستبدل بخصائص إنسانيته : شهوة جامحة ، وهوى مطاعا ، ونزغات شريرة ، فهل يرضى عاقل أن يقترب من هذه الجرائم ، ويلوث نفسه بآثامها ؟ .

نفى ورود الحقيقة عن غير الله

وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ

فتمد يخيّل الوهم الكاذب للأغبياء أننى أغلو فى تصوير المبشرين

(١) « ولا تطع » : وتنحية الفقراء عن مجالسك « من أغفلنا قلبه » أى جعلناه غافلا ، لبطان استعداده للذكر بالمرّة ، أو وجدناه غافلا ، كقولك : أحييته وأبخلته ، إذا وجدته كذلك ، أو هو من اغفل إلهه ، أى لم نسمه بالذكر « عن ذكرنا » كأولئك الذين يدعونك إلى طرد الفقراء عن مجلسك ، فأنهم غافلون عن ذكرنا ، على خلاف ما عليه المؤمنون ، من الدعاء فى جمع الأوقات . وفيه تنبيه على أن الباعث له على ذلك الدعاء غفلة قلبه عن جناب الله سبحانه . وجبته وانهماكه فى الحسيات ، خفى عليه أن الشرف بحلية النفس ، لا بزينة الجسد « واتبع هواه » وكان أمره فرطا ، ضياعا وهلاكا ، أو متندما للحق والصواب ، نابذا له وراء ظهره ؛ من قولهم : فرس فرط : أى متقدم للخيل . أو هو بمعنى الإفراط والتفريط . فان الغفلة عن ذكره سبحانه تؤدى إلى اتباع الهوى المؤدى إلى التجاوز والتباعد عن الحق والصواب .

والمنذرين . وأنى لهؤلاء أن يدركوا أن ما استعملته في تصويرهم هو مصدر الحقائق والمعرفة .

أجل إنه الحق الذى لا ريب فيه ، ففي كل آية أصدق دليل على ذلك ، وهذه هى القرون تتابعت بما زخرت به من حوادث وتقلبات ، كلها تنطق بما أخبر عنه كتاب الله الذى أدرك الإنسانية على ذماء ، تلهث من إعياء لطول ما عجت خلف الآثام ، فأعاد إليها أمنها وطمأنينتها ، وهدأ من روعها وأنار لها طريق المدنية ، وحطم الأصنام التى كانت تحجزها عن مبصرات السعادة والاستقرار ، وأوضح لها الخطة العملية للرشد والفلاح ، بما قصه من تواريخ ، وبما ضربه من أمثلة الذين اتبعوا الهدى والرشاد ، فاكتنفهم الله برحمته ورضوانه ، وأسبل عليهم ستر حمايته ، وأظلمهم بظل رحمته ورضوانه ؛ وأمثلة من تعبد لهواه ، فأسله للهلاك فى الدنيا ، وسلكه فى قود المدحورين .

تهديد عنيف للسالكين غير سبيل المؤمنين

---

فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ (١)

---

إذ بعد بيان ما تقدم ، وظهور طريق الفلاح وطريق الشقاء ، لا عذر لمن يسعى إلى حتفه بتمدده .

ففى هذه الآية الشريفة مقنع لذوى القلوب المتحجرة ، والنفوس المادية ،

(١) « فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر » : أى عقيب تحقق أن ما أوحى إلى حق « لا ريب فيه ، وإن ذلك الحق من جهة ربكم ، فمن شاء أن يؤمن به ، فليؤمن كسائر المؤمنين ، ولا يتعمل بما لا يكاد يصلح للتعلل ، ومن شاء أن يكفر به ، فليفعل ، وفيه من التهديد ، وإظهار الاستغناء عن متابعتهم وعدم المبالاة بهم وبايمانهم وجوداً وعدمياً ما لا يخفى والمعنى : قل لهم ذلك ، وبعد ذلك ، من شاء أن يؤمن به ، أو أو يصدق فيه فليؤمن ، ومن شاء أن يكفر به أو يكذب فيه ، فليفعل .

بان الحق من الله وحسب . وهل بعد الذي ذكر من ترغيب وترهيب  
وثناء وتهجين ، يتردد أحد به مسكة من عقل ، أو ذرة من شعور إنسانى ،  
فى الإيمان بالله الذى أنزل القرآن ؟ لقد علمت أن الإيمان يحوطك بالفضيلة  
والعز ، ويدركك الأهوال والأرزاء ، فماذا يضريك لو آمنت ؟ وفى نفس  
الوقت تحققت من أن الكفر سوط عذاب يلهب ظهر الكافر إلى المخازى  
والجرائم ، فما الذى يفيدك إذن من التعلق بدسر من يحملك إلى الشقاء ،  
احكم أيها العاقل بنفسك على ما تختار « وكفى بنفسك اليوم عليك حسيباً » .

### تفريع على الترهيب السالف بيان العقاب الذى ينتظر المندر الذى يكفر

إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ، وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا  
يُعَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ  
مُرْتَفَقًا (١)

فما أبشع العقاب ، وأسوأ المسآب الذى ينتظر الفاسقين ، فإن الدنيا

(١) « إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ » : أى هبأنا للكافرين بالحق بعد ما جاء من الله سبحانه  
والتعبير عنهم بالظالمين ، للتنبيه على أن مشيئة الكفر واختياره ، تجاوز عن الحد ، ووضع  
لشيء فى غير موضعه . « نَارًا » عظيمة عجيبة « أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا » أى فسطاطها شبه به  
ما يحيط بهم من النار ، وقيل : السرادق الحجرة التى تكون حول الفسطاط ، وقيل : سرادقها  
دخانها ، وقيل : حائط من نار « وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُعَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ » أى يستغيثوا من العطش  
والمهل : كالحديد المذاب ، وقيل : كدردى الزيت « يَشْوِي الْوُجُوهَ » إذا قدم ليشرب  
انشوى الوجه لحرارته . عن النبى عليه الصلاة والسلام : هو كعكر الزيت ، فإذا قرب إليه  
سقطت فروة وجهه . « بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا » : متكأ ، وأصل الارتفاق نصب  
المرفق تحت الحد ، وأنى ذلك فى النار ؟ وإنما هو بمثابة قوله تعالى : « حَسْبَتْ مُرْتَفَقًا » .

بكذا فيرها لو اجتمعت في حيازة امرئ ، وفتحت له كوة يطل منها على هذا السعير الفائر ، وخير بن أن يفتدي نفسه بما في حوزته من قصور وضياع ، أو يمرض نفسه للهب هذا السعير ، لئلا يهلكه الجزع ، وتبرأ من مالك الدنيا ، على أن ينجو مما شاهد من عذاب هائل ، يصهر الجلاميد ، ويذيب الحديد .

### تفريع آخر

بيان النعيم الذي ينتظر المبشر الذي يؤمن

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ، أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ ، وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ، مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نَعِيمٌ أَلْوَابٌ وَحُسْنٌ مَرْتَفَقًا (١)

لقد نبذ الذي يكفر بخالقه في هاته النار المستعرة ، وأقبل المؤمن بخاطر وملء جوانحه بشراً وحبوراً ، نحو هذا النعيم الذي هو فوق ما أبصرته

(١) « جنات عدن » : أى جنات إقامة : « من أساور » : هو جمع أسورة ، أو أسوار جمع سوار . « ويلبسون ثياباً خضراً » : خصت الخضرة بثيابهم لأنها أحسن الألوان وأكثرها طراوة . « من سندس وإستبرق » أى مارق من الدياج ، وما غلظ ، جمع بين النوعين ، للدلالة على أن فيها ما تشتهى الأنفس ، وتلد الأعين . « متكئين فيها على الأرائك » : على السرر على ما هو شأن المتنعمين :



العيون ، أو سمعته الآذان ، أو اختلجت به القلوب البشرية ، نعيم يليق بحياة سرمدية خالدة . إذ أن المؤمن لما عرف حدود الله وتخلق بأحكام الدين الحنيف وقوانينه ، واتبع الطريقة المثلى في إقباله وإدباره ، ومضى في معاملاته وعباداته على سنن تعاليم السماء ، رقى شعوره . وسمت عواطفه ، وهذبت طباعه . واستقامت له موازين الفهم والإدراك ، فتصور الآخرة وكأنه يعيش بين ربوعها . في جدرها الزبرجد والمرجان ، وطرقاتها اللؤلؤ والياقوت . في ولدانها المخلدون ، في ذرايبها المبثوثة ، ونمارقها الموضوعة في عيونها الجارية وسلسيلها العذب ، في أكوأها الذهب ، وقواريرها الفضة ، جنات الخلد ، يرتع في مظارحها المؤمنون ، أينحرفون بعدئذ ، أتزعزهم عنها الدنيا . بتصورها الشاهقة التي لاتصمد لتقابل الفسفور والذر وضياعها التي لا تقوى على تقلبات الجو . وعوامل الطبيعة ، من قحط وجذب ؟ ..

### النقاء منزه ومبشر في موار

تتجلى فيه حكمة الإيمان ، ورجس الكفر

وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ  
أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ، كَلْتَا الْجَنَّتَيْنِ  
آتَتْ أَكْلَهَا ، وَلَمْ تَظْلَمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا ،  
وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ

هذا ، وإن كفران النعمة مرض نفساني خبيث يعترى ذوى الطبائع الوضيعة

فيقابلون العوارف والأيادي بالنكر . ولا يقرون بها إلا حينما ترهقهم  
الضرورة ، فإذا أتيح لهم الاستغناء والقدرة ، كانوا أجمع من الخيل المرسلة  
في مقابلة الإحسان بالإساءة ؛ ويرجع تعليل ذلك إلى أن النفس البشرية  
تصطدم بين عاملين (١) : أحدهما مادي ، والثاني روحاني ، فإذا انفعل العامل  
الأول ساورت القلب قساوة كثيفة ، تحجب عنه آفاق الفضائل ، وتفتح  
عليه أخطار الحياة . وتفعمه بحبها الذي يجر إلى الهلاك . أما العامل الروحاني  
فمعنى انفعاله ، تربية الحواس والمشاعر تربية سامية تجعلها دائماً تمتج الدنيا  
والسفاسف ، وتطمح دائماً إلى السماء .

وليزداد الناس بصراً بالأخلاق السكرية . والإيمان الخالص ، عرض  
القرآن الكريم لتحليل نفسية شخصين : متيم بالدنيا ، يرنو إلى خيالاتها المزوقة  
ملء آماله وأمانيه ، لايريم ، ويلبى ملء سمعه وبصره هو اجس آثامها لا يتأثر

(١) « واضرب لهم مثلاً » أى للكافرين والمؤمنين ، لا من حيث أحوالهما  
المستفادة مما ذكر آتفاً من أن الأولين في الآخرة كذا ، وللآخرين كذا ، بل من حيث  
هصيان الأولين ، مع تلبهم في نعم الله تعالى ، وطاعة الآخرين ، مع مكابدتهم مشاق الفقر  
(مثلاً) حال رجلين متدربين ، أو محققين ، أخوان من بني إسرائيل ، أو شريكان : كافر ، اسمه  
قطروس ، ومؤمن اسمه : يهوذا ، اقتسما ثمانية آلاف دينار ، فاشتري الكافر بنصيبه ،  
ضياعاً وعقاراً ، وصرف المؤمن نصيبه إلى وجوه المبار ، فآل أمرهما إلى ما حكاه الله تعالى ؛  
وقيل : هما أخوان من بني مخروم : كافر ، هو الأسود بن عبد الأسد ، ومسلم ، هو أبو سلمة  
عبد الله بن عبد الأسد ، زوج أم سلمة رضي الله عنها .

« جنتين » يتأين « من اعناب » من كروم متنوعة « وحففناهما بنخل » أى جعلنا  
للنخل محيطاً بهما ، مؤزرأ بها كرومها ، يقال : حففه القوم إذا أطافوا به ، وحففته بهم جعلتهم  
حافين حوله « وجعلنا بينهما » وسطهما « ولم نظلم منه » لم تنقص من أكلها « شيئاً »  
كما يعهد ذلك في سائر البساتين ، فإن الثمار غالباً تسكث في عام ، وتتل في آخر ، وكذا بعض  
الأشجار ، يأتي بالثمر في بعض الأعوام دون بعض « وجفنا خلاهما نهراً » على حدة ، ليدوم  
شربهما ، ويزيد بهاؤهما ( وكان له ثمر ) أنواع عن المال غير الجنتين ، من ثمراته إذا كثرت .  
قال ابن عباس رضي الله عنهما : هو جميع المال من الذهب والفضة والحيوان وغير ذلك ،  
وقال مجاهد . هو الذهب والفضة خاصة .

بمواعظ الواعظين . ولا يعتبر بالمال الذى حطمت من سائر قبله سيرته ،  
ولا يذره الإنذار السماوى . وكيس رشيد عرف الله . فآمن . وعاش  
فى الدنيا على ذكر من الآخرة . فسما ، وظلته البشرى ، فاعلم أن .  
فلا عجب إذن أن يؤذى كرامة هذا المؤمن . ويجرح شعوره ، ما يبدو  
على المنذر الكافر من حقارة ودناءة . وتأليه للدنيا .  
طغيان المادة على النفس . وتأثيرها فى العتيدة

فَقَالَ لَصَاحِبِهِ وَهِيَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ،  
وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا  
وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا  
مِنْهَا مُنْقَلَبًا (١)

فهاك ترى أن حلس الدنيا ، لا يعتز بشيء اعتزازه بعرضها الزائل ،  
فلا يبصر إلا سهاها الرائشة ، مشرعة أسنتها إليه ، فيتيه غفراً بثرائها ، حتى  
إذا ذكر بما وراء هذه الحياة عرضاً . نفخ الغرور أوداجه ، وأعلى نفسه  
صك الرفاهة أبد الأبد . فركن إلى الدنيا ، وآمن حيث المادة ، فإذا املاست  
من بين يديه ، لفحه أوار الندم على ما فرط فى جنب الله ، ولكن متى . .  
حينما طوى الركب المراحل ، وتخلف هو يرتدخ فى قاذورات الهوى ،

(١) ( أنا أكثر منك مالا وأعز نفراً ) حتماً واعواناً ، أو أولاداً ذكوراً ، لأنهم  
الذين ينفرون معه ( وهو ظالم لنفسه ) ضارفاً بمجبه وكفره ( تبید ) تفتى .  
هذا ، ولعل فى قوله ( ولئن رددت إلى ربى ) الخ . تهكم بالؤمن الذى يعظه .

يسامر الشياطين ، في ظلمات تنصارع في دياجيرها الأشباح . ولقد استفاض الحديث آنفاً فيما يترتب على إثبات الدنيا وزينتها ، فارجع إليه إن شئت أن تستحضر صورة هذا الجاحد « المنذر » الذي غمره مولاه بالنعم ، وأفاض عليه اليسر والرغد ، فأبى عليه لؤم طبعه إلا أن يتخلى سياج الشكر ، مثلاً في الإيمان والتوحيد ، وينخرط في غمار المادة ، خالماً عليها دوام الخلود مثلاً في الكفر والجحود الذي يمحى البركة ، ويسلب النعم بداهة ، إما بعقاب إلهي لا مانع له ، وإما بما تجنيه يداه ، من إسراف وتبذير في مظاهر الحياة ، وما تدفع إليه من حرية وبهيمية ، يسيل لهاها إلى المحرمات : من خمر وزنا وقمار ولهو ، وما إلى ذلك ، مما لا يخفى على أحد ، وهذا من أخبث ألوان الظلم النفساني الذي يضطرنا المقام إلى سرد لمح منه .

« وهو ظالم لنفسه » فنفذ تعارف الناس على أن الظلم هو ما ينال الضعيف من القوى ، من افتيات وإجحاف ، أو المرءوس من الرئيس ، أو المخدوع من الخاتل ، أو المسلم من الكاشع ، إلى آخر أنواع الظلم السافرة والمتمنعة ، ولم يعرفوا هذا النوع الغريب الذي يحنيه المرء على نفسه ، ويوقرها بعبثه الثقيل الذي ينوء بالكاهل ، ويكون هم النهار ، وسهد الليل .

ولكن الحقيقة ، فإن الإنسان أكثر ظلاً لنفسه من الظالمين وأخطرهم عليها من الظلمة والمستبدين : ينتهك الإنسان حرمة أخيه ، أو يغتصب حقاً من حقوقه أو يغازل محارمه ، أو يصفعه أو يسبه أو يجابهه بعبارة نابية ، أو كلمة بذئية أو يوقع به أو يختابه أو يفوت عليه منفعة أو يلحق به ضرراً قال جانب أنه يظلمه بذلك ، فقد يكون لنفسه أشد ظلاً : لأن الضرر الذي يسببه الإنسان لغيره لا يوازى ما يعقبه من سخط الله وعذابه الأليم في الدنيا بالأمراض القاتلة ، وفي الآخرة بالجحيم الهائل .

وفي كثير من الأحيان لا يتعلق ظلم الإنسان لنفسه بحق من حقوق الناس ، وإنما هو تارة يتعلق بحق من حقوق مولاه الأعلى ؛ فإن أثرى ولم يشكره ، أو بؤس ولم يحمده ، أو شبع أو كسى ، أو تحقق له أمل في الحياة ولم يوف هذه الآلاء حقها من الطاعة والثناء ، أو تهاون في أداء فرض من فرائض الله : كصلاة وصيام ، وحج ، وهو قادر عليها ، أو قطع صلوات رحمه ، أو ضن بكسرة لدى مسغبة ، أو آذى بائساً بانتهار ، أو حقر معوزاً أو تأفف من أبويه ، أو حدث كذباً ، أو شهد زوراً ، أو غش ، أو دلس أو طفف الكيل ؛ وبالجملة إذا خرج على أية ناحية من قوانين الدين ، والأخلاق والاجتماع ، فإن الظلم الذي يعود على نفسه لانهائية له ، وأى ظلم يصيب الإنسان أكثر ممن يتهاون في حق من حقوق خالقه العظيم ، الذي خلقه فسواه ، ومنحه بصيرة وعقلاً .

وتارة يتعلق ظلم النفس بحق من حقوقها « وإن لبدنك عليك حقاً ، فإن أدواها بجرائم : الزنا أو الخمر أو اللحم الخنزير ، وما إليها ، أو ضيع ثروته في الميسر أو أدمن على مكيفيات ، وهو يعلم أنها تضره مادياً وصحياً ، كأولئك الذين يحقنون أنفسهم بمواد مخدرة سامة كالمروروفين والأفيون ، أو يتعاطون - تبغاً - سجائر ؛ فيتأثر كبدهم بإفرازها ، فيفقدون أموالهم ، وتضمحل صحتهم . فهل يبلغ الظالم لغيره بالظلم ما يبلغه هذا من نفسه به ؟ ..

وتارة يتعلق ظلم النفس بحقوق يشاركه فيها المجتمع ، كمن يترك مثلاً لنسائه العنان ؛ فإنه يظلم نفسه بانحلال مركزه الأدبي ، وكل جريمة خلقية ، تنتشر في الأرض ، وفتنة غوية تطوى الأوساط والبيئات . فهو عديلهم في جريرتها وآثامها ، وكل راع مسئول عن رعيته .

تعجب المؤمن من اغترار الكافر وجرأته على مولاه

قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ  
تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا <sup>(١)</sup>

يعيش المؤمن والكافر تقلهم أرض واحدة ، وتظلمهم سماء واحدة ، ويتقابلان في الطرقات والأسواق ، وهنا وهناك ، ولكن هذا يسبح بأفكاره في واد ، وهذا في واد آخر ، فإذا قيس بينهما بدا الفارق الشاسع بين من يعيش بعقل يزن الأمور ، ويبصر الحقائق ، وبين من يركب متن الأوهام ، ويطبق أجفانه عن رؤية الأشياء بكنهها وحقيقتها ، حتى لا يؤذيه ذلك ، ويقسره على مجانبة ما ظهر له باطله ؛ وإن المؤمن لا يهوله شيء أكثر من أن يصادف إنساناً يجترىء على الله سبحانه وتعالى ، ولا يلتاع من نازلة التياحه أن يعثر بمن ينكر فروض الخشوع لجبار السموات والأرض فلم يلبث أن ينبرى ، يصد هذا المتهور عن الهاوية التي أشفى عليها أو كاد ، مهما عظمت سلطته ، ورعدت سطوته ، وسال ثراؤه يطاول الأبعاد والمسافات ، ومهما كان هو لا يملك من حطام دنياه إلا أسماً ممزقة ، وأطماراً عزت على الترقيع ، ولا ينفك يقيم له الأدلة من أصل خلقته القابلة

(١) « من تراب » فإن خلق آدم عليه السلام منه مضمن لحلته منه ، لا أن خلق كل فرد من أفراد البشر له حظ من خلقه عليه السلام ، إذ لم تكن فطرته الشريفة مقصورة على نفسه ، بل كانت نموذجاً منظوياً على فطرة سائر أفراد الجنس انطواءً إجمالياً ، مستتبعا لجريان آثارها على الكل ، فكان خلقه عليه السلام من التراب ، خذاً للكل منه ، وقيل : خلقتك منه ، لأنه أصل مادتك القريبة ، إذ به يحصل النماء الذي منه تحصل النطفة . فتدبر « ثم من نطفة » هي مادتك القريبة ، فالخلق واحد ، والمبدأ متعدد .

للفناء (١) . على فساد ما يذهب إليه من أكاذيب . وتفكير أخرق . والتمسك  
بالبفاني الذي اجتمعت منه عناصره .

محافظة المؤمن دائماً على ذكر مولاه

---

لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا

---

فالمؤمن يرى في ربه المثل الأعلى ، فلو ساومه أحد بملك الدنيا من  
أقصاه لأقصاها . على أن يحول طرفه عن خالقه فترة عابرة . فانه يستخف  
بمساومه ، ويقصيه عنه . لأن تجارب الماضي والحاضر دلت على أن الدنيا  
لابقاء لها ولا ثبات ، فهؤلاء الملوك والباطرة والأقوال بحمافلهم وسلطاتهم  
وهؤلاء القادة والزعماء بأتباعهم وبطانتهم . وهؤلاء ملوك المال ذوى الثراء  
العريض : من قصور عالية ، وحدائق مكللة ، وضياح مترامية ، وذهب نضار ،  
وهؤلاء البؤساء والمحناجين ، يكتسحهم الموت اكتساحاً ، ويلغويهم الفناء  
طياً ، فهل تمنع أحد عليه ، بمن لهم الصولة والدولة . والحول والطول ،  
وهل تخلى أحد عصرأ غابراً إلى عصر يليه ، بمن كانت الآمال تشتعل  
في قلوبهم حباً في البقاء . وحرصاً على متع الأهواء ؟

فهم المؤمن هذه الحقيقة فسخر بالدنيا أحيولة الكفر ، ومفتاح  
الخبائث ، واتجه نحو الله ينضم بسعادة قربه ، لا يحجبه عن ذلك ليل أو نهار ،  
ولا ثراء ولا فقر ، لأن العوائق المادية لا يمكن بحال من الأحوال أن تحول  
بين تجليات القدس .

(١) في هذه الآية السكرمة تهجين للكافر وتحقير لشأنه ، حيث ينسب خالقه إلى صفات  
الحوادث . مع علمه بمهانة العناصر التي يتجبع منها خلقه ، مما لا يليق بجنان  
الالهية المقدسة .

المؤمن متوكل على الله غير حسود تتجلى له قدرة الله في جميع مصنوعاته

وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ  
إِنْ تَرَنْ أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ، فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي  
خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ (١)

ومن ثم ليس من الغلو في شيء أن نقرر أن المؤمن كالزنبقة الأرجة ،  
ينفح أينما كان طيباً وعطراً ، فهو في ذات نفسه وديع ، نقي القلب ، طاهر -  
الضمير ، يقبل ويدبر على ضوء من لدن خالقه ، ولا يشغل ذاكرته شاغل .  
عن مولاه ، ولو اضطلحت عليه لأواء الحياة وبأسائها ، وجشمت عليه  
الفاقة بكلكها ، كما سبقت الإشارة . وإلى جانب ذلك ، فإن قدرة الله تعالى  
تتمثل له في الشجر والمدر ، في المدن والقرى ، في الجبال والأنهار في مطارح  
الأرض : صحارى ووديان ، وهادوقن ، خصب ومحل ، حدائق ومزارع .  
وفي آفاق السماء : نجوم وكواكب ، شمس وأقمار . وهذه المعرفة بالطبع  
جردته عن دنى الخلال ، فإذا وقعت عينه على نعمة أحاطت بأحد من  
عباد الله ، كان أول ما ينصرف إليه همه الاطمئنان إلى قدرة الله والإقرار  
بأنه وحده الوهاب القدير الذي كل يوم هو في شأن : يرفع أقواماً ويخفض

(١) « لا قوة إلا بالله » أى هلا قلت ذلك ، اعترافاً بمجزك ، وبأن ما تيسر لك من  
عمارتها وتدير أمرها ، إنما هو بمعونته تعالى وإقداره ؛ عن النبي صلى الله عليه وسلم :  
« من رأى شيئاً فأعجبه ، فقال : ما شاء الله ، لا قوة إلا بالله لم يضره » .



آخرين ؛ إن أراد تملك بئس ، فلا تستطیع قوة على وجه الأرض أن تمنع عنه ما خص به . كما أن أحداً لا يتقدر أن يلوى متربة عن ثرى ، تشكس الأموال في خزائنه ، فالمؤمن بحكم التعاليم العالية التي اكتسبها من عقيدته ، فإنه لا يحجم عن نصح المعاندين ، وتبصيرهم بما يحجره الغرور والكفر بالله من مصائب ونكبات ، ويستمد أدلته من المحسوسات التي يستطیع المنذرون أن يفهموا لغتها . فيشير إلى أن الذي أعطى هذا ، وحرّم ذلك ، لا يعجزه أن يسلب نعمة هؤلاء ، ويحولها إلى سواهم .

اعتماد المؤمن بأن عوامل الطبيعة سماوية وأرضية إنما هي  
من مظاهر القدرة الإلهية

---

وَيُرْسَلْ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ،  
أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (١)

---

وإننا لو استطرّدنا في سرد الوقائع المادية على قدرة الله تعالى الذي بيده ملكوت السموات والأرض ، لغص بتتابعها وتهاقها آلاف الصحف . فقد حدث ويحدث أن حصد المنون علماء تدانت لهم عناصر الطبيعة وسخروها بإرادة الله لخدمة العالم من أثير وكهرباء وراديوم ، وما لا حصر له من المكتشفات الحديثة ، بيد أن ذلك لم يغير شيئاً من النظام الكوني الذي قدره الله ، من إفناء هذه الحياة ، فتي حان أجل أحد من هؤلاء

---

(١) «حسباناً» قيل : مرأى ، جمع حبانة ، وهي الصواعق وقيل غير ذلك «صعيداً زلقاً» أي أرضاً ملساء ، يزلق عليها ، لاستئصال ما عليها من البناء والشجر والنبات «غوراً» أي غائراً في الأرض .

المكتشفون ، فلا منقذ له من المصير المحتوم ، الذى قدره الله على جميع الكائنات الحية ، دون استثناء بين قوى ذى مرة ، وضعيف لا يقوى على حركة ، عواهل وسوقة اخ . وإن أخبت الزنادقة والملاحدة لا يمكنهم أن يجحدوا هذه الحقيقة ، فبرغم إنكارهم للحقائق المعنوية ، ولما دعوا إلى الإيمان به من هيمنة الله على تصريف الأمور ، وتقلب الأحوال . فإن شيئاً يقرون بحقيقته إقراراً حسيّاً واعتقادياً . وذلك الشيء هو الموت ، ولا حياة لهم فى إنكاره ، ولو أنهم نحوا عن عقولهم حجب الجهل ، وكثافة الدوافع البهيمية ، لتوصلوا بقليل من الروية والتأمل إلى إِبصار قدرة الله تسيطر على الكون ، وتصرف شئونه ، وتدبر أموره ، وتبرم وتنقض ، وتتحكم فى عوامل السماء والأرض تحكما مطلقاً عاماً ، لا يعترضه عقبة ، ولا تمنعه سدود ، ولا مسافات ، ولا أغوار .

أجل : يبصرون ذلك أنبغ ما يكون فيما سجله القرآن الكريم ، وإذا كان كفرهم الضرير الألسد ، قد مكن من عقولهم وبصائرهم غواشى الفسق والشك ، ولم تتح لهم فرصة التأمل فى آثار قدرة الله تعالى ، فذلك لا يغير شيئاً من الواقع الملموس ، بأنه الفعال لما يريد ، وأن كل ما تتمنض به العقول البشرية ، والأيد العاملة ، فما هو إلا برهاناً يقوم على قدرته ، لأنه بإرادته ما كان ويكون إلى يوم الدين .

وهذا ما حاول المؤمن أن يلفت إليه الكافر المغرور ، كي يقطع عن غيه ، وينظر إلى الناحية المادية نظرة بعيدة عن الركون إليها كقوة تنفع أو تضر ، وبذلك يتجنب العوامل التى تدفع إلى الشقاء دفعاً .

حسرة الكافر وندمه عند ما تطبق عليه نذر الله

وَأَحِيطَ بِشَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفِّيهَ عَلَى مَا أَتَّفَقَ فِيهَا وَهِيَ  
خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا<sup>(١)</sup>

وبعد أن يتبين للنذر أن إتيار الكفر على الإيمان والاغترار بزينة الحياة الدنيا ، والإحجام عن شكر الله على آلائه ، جالب للرزايا والمحن ، ومع ذلك فهو يلح في عمايته ، حتى إذا أمضى الإله جل شأنه وعيده وأخذه بكفره وغلطسته واغتراره ، وسلب منه ما أعطاه ، وأطلعته عملياً على أن يده وحده تعالى تقلب الأمور ، وتغيير الأحوال ، لم يتمالك أن يثوب إلى رشده ، وتنكشف له الحقائق الربانية التي انقدحت في نفس المؤمنين . ويدرك آنئذ أنه خسر الصفتين ، وضل الطريقين ، فلا المال الذي أطفاه دام ، ولا حكم عقله فيما حكم فيه المؤمنون ، فخطى مثلهم بالسعادة الدائمة .  
تقرير أنه لا راد لقضاء الله

وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا

فإذا وقع قضاء الله تعالى وحان وقت تنفيذ وعيده في عبد ، فإن الكمي الجلد ، تتخاذل أعضاؤه ، ويفقد الولي الحميم صوابه ، وتطيش أحلام المظاهرين والمواسين ، وتتقلص في نفسه تلك الأحاسيس التي كانت تفرخ في روعه الأوهام : أن سفينة الأقدار شقت به عباب الحياة بريح رخاء ، وأن  
(١) « وأحيط بشمره » أهلك أمواله الموعودة من جنته ، وما فيها وتقلب اليدين ، كناية عن الندم .

بيده البطش والصفح ، وأن ملكه ماله من نفاد ، فإذا وضع له خطأ زعمه ، وأن الثروة عارية مستردة ، تلفت حواليه يمينه ويسرة ، فلا يقع طرفه على الجوع الحاشدة التي كانت تتملقه ، وتترامى لإشارته . ويستصرخ العالم أن ينقذه ، فلا يعثر على من يدفع عنه قضاء الله تعالى .

تقرير أن الإنابة إلى الله تعالى أحق وأولى

---

هَذَاكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ ، هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا ، وَخَيْرٌ عُقْبًا

---

فبعد الذي تقدم من آيات لم تدع مجالاً لريبة في أن الإنسان يجب عليه أن يسير في حياته سيرة مرضية ، وأن لا يغره ما مكن الله له من رخاء الحياة وصفوها ، وأن يتخذ ذلك ذريعة إلى صالح الأعمال ، وجميل الذكر وحسن الاحدثة ، وإنه لمن خطئ الرأي ولؤم الطبع تخطى هذا السياج الحكم .

نعيب على ما تقدم

مثل الحياة الدنيا في تعرضها للزوال

---

وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ

بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ ، فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ <sup>(١)</sup>

---

لقد علمت ما علمت من أخبار المبشرين والمندرين ، واعتقاد كلا الفريقين

(١) « وأضرب لهم مثل الحياة الدنيا » أي واذكر لهم ما ينسبها ، في زهرتها ونضارتها ، وسرعة زوالها ، لا يطعمونها بها ، ولا يكتفوا عليها ، ولا يفرحوا عن الآخرة صفحاً بالمرّة ، أو ين لهم صفتها المعجبة التي هي في الفراة كالثلج . « هشيماً » من شوما مكسوراً « تذروه الرياح » تفرقه .

وحالها الاجتماعي والأخلاق ، ومآلها ، ولفتناك أكثر من مرة إلى ما يجب أن يسلكه العقلاء ، حتى يحتفظوا باعتبارهم في الأسرة الإنسانية الراقية المهذبة ، ولما كان العقلاء بداهة بأنفون عما لا يليق بمراكمهم التي خولت لهم الحق في التزام حدود الكياسة والاعتزان ، والتحكم في إرادتهم وأعصابهم والترفع عن الانخداع العاجل بمظاهر جوفاء لا تصمد للتمحيص . ولما كانت الدنيا هي العقبة الكؤود في طريق الوصول إلى المجد والرفعة ، بل هي المشكلة المعقدة التي أوقعت في حبالها الأغلبية الساحقة ، وأنشبت فيهم مخالبها ، فاستسلموا لها تعصر من قلوبهم نقاء اليقين ، وتنسج حول عقولهم وأفكارهم صداً الجهل والغباء - أراد جل شأنه أن يطلعهم على سرعة زوالها وأنها معرضة للفناء المفاجيء ، كما تتعرض النباتات للجوائح السماوية لا يدري أحد أياها تقع ، ولا شيء أسرع فساداً من النبات ، يختلط من وابل السيل المنهمر بقدر لا يحتمله وينوء به كيانه ، فلم يلبث أن تتقوض نضرتة ، وتذبل خضرته ، ويصير هشياً تتخطفه الرياح .

فأى عاقل هذا الذي يسلسل قياده لما لا يدري أحد متى يصبح كومة مهملة من الحشيم لا نفع لها ، منبوذة في مهب الرياح ١٩ ..

قدرة الله المطلقة

---

وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا

---

إذ لا مرأى والحالة هذه في أن قدرة الله تعالى تظهر آثارها في كل شيء كأوضح ما تكون القدرة الغالبة ، فهذه الأرض بدورها المنظمة وارتباط بقائنا بالسماء ، لتوثق صلة العالم المادى بالعالم المعنوى ، ولقد فصل العلم

الجغرافى هذا المعنى تفصيلاً كاملاً ، فالشمس تمد الأرض بالحرارة التى تحفظ  
كيانها ، وهى تدور حولها ، وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب  
صنع الله الذى أتقن كل شئ ، وبهذه الدورة عرف الحساب الشمسى (١) .  
وكذا لولا التمر لما عرف التوقيت القمري ولحرم العالم كثيراً من المنافع  
التي لها ارتباط بكثير من شئونه ، وأيضاً فى القطر الخصب والنفاء الخ .  
فقدرة الله تعالى ، كما أنها تهيم على مقدرات السموات فهى تهيم كذلك  
على المقدرات الأرضية من أشجار وأنهار وجبال ، وسهل وحزون ، وعامر  
وغامر ، والأدلة على ذلك متوافرة . ولقد ألمعنا بطرف منها قريباً ، وإن  
الذى خلق الأرض وهى دخان ، لا يعجزه إفناءها عند ما يريد ذلك ، وإن  
الذى خلق بالماء الخصب ، لا يعيا أن يعكس الغرض منه ، ويحيله إلى عامل  
نقمة ، لا عامل نعمة .

أقصى ما تصل إليه زينة الحياة الدنيا لا قيمة له بالنسبة لما عند الله .

## الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا ، وَخَيْرٌ أَمَلًا (٢)

لا إخالك ، وقد تلوت الآيات الكريمة التى أعقبت آية « إنا جعلنا  
ما على الأرض زينة لها ، وتدبرت المعانى التى لاحصر لها ، المنظوية عليها ،  
وكيف حللت نفسية الذين سقطوا تحت سنابك مغرياتها ، والذين تمنعوا

(١) لا يتعارض ذلك مع ما ذهب إليه بعض المفسرين .

(٢) «الباقيات الصالحات» هى أعمال الخير ، وقيل : هى الصلوات الخمس ، وقيل :

صحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، وقيل : ما أريد به وجه الله تعالى ...  
وأما بقاؤها بقاء عوائدها عند فناء كل ما تطمح إليه النفس من حظوظ الدنيا .

عليها ، وسلخوا بقلوبهم وعقائدهم أعظم ما يكون الإنسان الرشيد ، حتى إذا انتهت إلى هذه الآية الشريفة تكشفت لك حقيقة أقصى ما تزدان به هذه الحياة مما ينطبق على النفس البشرية انطباقاً عاماً ، والابتلاء في ذلك قائم في ذات نفسه لا ينفك عنه .

فقد انحصر متاع الحياة الدنيا فيما زين من شهوات : النساء ، والبنين ، والقناطر المقنطرة من الذهب والفضة الخ . وهذا ، على ما دلت التجارب المتكررة ، والوقائع المشاهدة في عصور الحياة وأجيالها ، متاع متقلب لا ثبات له ، مهما تركزت فيه آمال ذوى النفوس الضعيفة ، وفي طغيان شهواته اضمحلال للقوى ، وانقراض للعمران .

فإذا طغت شهوة النساء على القلوب ، وتفاعلت بالفراش ، تعرض الإنسان لأخطار جمة قاتلة : منها ما يرتبط بالأخلاق ، ومنها ما يتعلق بالصحة ، أما من الناحية الخلقية ، فانها دافع ملح في إثارة العاطفة البهيمية ، فينطلق الإنسان كالحيوان ، لا يتدبر ولا يرعوى ، مضجياً في سبيل قضاء وطره بكرامته وخلقه ، بل وبدينه أيضاً ، ومتى آلت الإنسانية إلى هذا المصير السيئ ، رجعت القهقري ، وأوشكت على الانهيار . وأما من الناحية الصحية فقد يشاهد الزناة ييؤون بأمراض خبيثة قاتلة ، لاتنفع جراثيمها تلازمهم طوال حياتهم ، ويتأثر بها نسلهم .

أما البنين ، فالإجماع على أنهم بضعة من القلب ، وقلنة الكبد ، وشق الروح ، يؤثرهم الإنسان على نفسه ، ويسره أن يراهم سعداء رافقين ويسوءه أن تقع عينه منهم على ذلة ، أو شقاء ، فطغيان شهوتهم يهون على الإنسان اقتراف المظورات ، ويربى عاطفة الأنانية ، فلا يتخرج عن الظلم إن وجد له مجالاً ، ولا يتورع عن اغتصاب الحقوق ، فإن كان من الدهماء انطلق

كائنوا رى . يزعم الآمنين ، وإن كان ذو حيثية وجاه ، فإنه لا يستقدر مد يده لرشوة دنيئة ، أو منحة حقيرة ، أو عطية آئمة ، يسعى لنفسه وبنيه ولا يحفل إن سعدوا بما يئن منه المجتمع من آلام وأحزان .

وليس معنى ذلك أن البنين كلهم شر ، وإلا تعطلت الحياة ، وشلت حركتها ، وأصابها ما يشبه الركود ، وذلك ليس من أغراض الدين فى شىء ، إذ أن من بين الأبناء من هم ذخر لآبائهم فى الدنيا ، ومشوبة عند الله فى الآخرة . وفى أثر نبوى : «أو ابن صالح يدعو لك» فى صدد خالذ الأعمال .

أما المال ، فقد تسكن إليه القلوب ، وتهوى الأفتدة ، لما أشيع من أنه أداة السعادة ، ومركب الهناء ، وفى الحق فإن المال سلاح ذو حدين : فإن استعمله الإنسان لصالحه ورصد ما يزيد عن حاجته فى شئون العالم ومرافقه «ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو» كان المال له ، ونمما ، وحفته البركة ، فيسعف به المحتاجين ، ويرد لطفة المتلهفين ، ويقضى ضرورة المعوزين ، ويبدله فى سبيل رقى أمته ورفاهتها ، ومرضاة ربه تعالى : بأداء فرائضه من زكاة وحج وصدقات ، وإن استعمله فى غير أهدافه الطبيعية ، ومصارفه الواجبة ، ساقه إلى هاوية الآلام والأوصاب : فيضرب فى الأرض على غير هدى أو بصيرة ، يبدو به فى مظاهر الكبرياء والغطرسة ، ويرتطم بنوازع الشرور والآثام : من سكر وزنا ، ويضحى من أجل الحصول عليه بإنسانيته وكرامته : يسرق ، ويرتشى ، ويقامر ، ويتستر على البغايا ... الخ ، وهل ثمة أشد أثرا فى ضراوة الإنسان من المال ، وهل ثمة أجل موعظة وأبلغ عبرة بما ضربه الله تعالى لعباده من أمثال ؟ .



كيفية إفناء الدنيا ، وبعث الخلائق

وَيَوْمَ نُسِيرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَا هُمْ فَلَمْ  
تُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ، وَعَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا  
كَأَنَّكُمْ أَفْئِدَةٌ مَرْبُوعَةٌ (١)

لقد عرض القرآن الكريم لإنهاء العالم بأسلوب يخاطب العقول ،  
ويقرب إلى الأذهان صورة هذه النهاية واضحة الخطوط والمعالم ، مما لا يدع  
مجالاً للشك في قدرة الواحد الديان ، وإذا كانت الجبال ، وهي أضخم شيء  
لا تمتنع على إرادة الله ، فتعري عنها الأرض ، التي يحتل توازنها حينئذ ،  
فكيف يمتنع ما عداها حينما تقتضى الحكمة الإلهية زواله ؟ وإن هذه الآية

(١) « ويوم نسير الجبال » أي اذكر حين تقتلها من أماكنها ونسرها في الجوع على  
هباتها ، كما ينبغي عنه قوله تعالى : « وتري الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب »  
أو نسير أجزاءها ، بعد أن نجعلها مباءاً منبثاً . والمراد بتذكيره تحذيره المشركين مما فيه  
من الدوامي « وتري الأرض » أي جميع جوانبها ، والخطاب لرسول الله صلى الله عليه  
وسلم أو لكل أحد مما يثاقب منه الرؤية « بارزة » أما بروز ما تحت الجبال فظاهر ، وأما  
ما عداها فكانت الجبال تحول بينه وبين الناظر قبل ذلك ، فالآن اضحى قاعاً صافياً لا ترى  
فيها عوجاً ولا أمثاً « وحشرناهم » جمعناهم إلى الموقف من كل أوب : « فلم تغادر » أي  
لم تترك . يقال : غادره وأغدره إذا تركه ، ومنه الفدر الذي هو ترك الوفاء ، والفدير  
الذي هو ماء يتركه السيل في الأرض الفائرة « وعرضوا على ربك » شبهت حالهم بحال جنه  
عرضوا على السلطان ليأمر فيهم بما يأمر « صفاً » أي غير متفرقين ولا مختلطين ، وقد ورد  
في الحديث الصحيح : (ويجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد صفواً) « لقد جئتمونا  
كما خلقناكم أول مرة » أي كائنين كما خلقناكم أول مرة ، حفاة عراة غرلاً ، أو ما معكم شيء  
كما تغفرون به من الأموال والأنصار ، كقوله تعالى : « ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم  
أول مرة ، وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم » .

وحدھا كافیة فی أن تبری مرض القلوب ، فهذا العالم بما أتاح الله له من مواد ناسفة وآلات قاطعة ، وما منحهم من قوى التفكير والتحایل فی شق الصخور ، ونحت الجبال ، وقطع الحجارة الضخام منها للانتفاع بها فی عمارة الأرض من بنایات رائعة ، وقصور شاهقة ، وجسور وصیاصی ، وقلاع وما إليها مما یروع الأبصار ویثير العجب ، ومع ذلك فمئذ وجد العالم وإلى أن یرث الله الأرض ومن علیها ، لم یؤثر بأنه أزال جبلا من مكانه أو بدل شیئاً فی خلق الله ، وإن اتساق هذه الآیات مع ما قبلها لیكاد یشبه اتساق الأعضاء فی التركيب الجسمانی ، فقد خص ذكر الأرض فی زجر المنذرين ، لیکفوا عن غوايتهم الفاجرة ، ولیطمنن المؤمنون ، ویزدادوا فیها هم بسبيله من صالح العمل « إنا جعلنا ما علی الأرض زينة لها ، وتتابع المناسبة مترابطة وثيقة حتى تحتاج جنی الكافر ، وهی بضعة صغيرة من الأرض السکبری . فإذا مضیت تقلب صحف المعانی ، فستبهرك عظمة القرآن الإلهی ، لأن من شأن الألوهية التنزه عن النسیان عموماً « وإن تكن حبة من خردل فی صخرة أو فی السموات أو فی الأرض یأت بها الله ، أما جلال الله وجبروته وعظمته ، فلا یبلغ فیها الواصفون ما بلغته هذه الآیة الطاهرة « وعرضوا علی ربك صفأ » لا فرق بین ملوك ورعية ، عواهل ودهماء ، أمراء وصعاليك ، جبارین وأذلاء ، مستبدین وضعفاء ، طغاة وغوغاء ، فالجميع بین یدى رب الأرباب ، عبید معاویز ، متجردين عن هذه المظاهر الجوفاء التي كانت السبب المباشر فیما یلقاه المنذرون إذ ذاك من سوء المنقلب .

فهذه الآیة الکریمة تؤید ما ذهبنا إليه آنفاً من أن كل ما یمتلكه الإنسان فی هذه الحیاة عاریة مستردة ، إلا ما تزوده من الأعمال الصالحة .

تسفيه المنكرين للبعث وتانيبهم حينما يقفون بين يدي الله

## بَلْ زَعَمْتُمْ أَن لَّنْ نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا

تدبر في ريث وأناة آى الذكر الحكيم ، وقش ماذا بقى في صدرك من ريب فيما وراء هذه الحياة الدنيا . فهذا الموت باب الآخرة قد ولجته أم آملها وأسعة عريضة ، وعصور وأجيال ، لم يبق مما كانت تشيده ، وتجود في فنونه إلا آثاراً تنطق بمرتهم ، وقوة مراسهم وشدة شكيمتهم وشغفهم بالحياة ، فأدهم المنون ، وقد ألقى إلى خلفهم سجلا من الذكريات حافلا بالمواعظ والعبر ، وبالطبع فهو لاء سبقونا إلى الوقوف على كنه هاته الحياة الآخرة ، ومنهم من كان يبلغ إنكاره لها مبلغ اتهام الموقنين بالرجعية والافتناع بالأساطير ، كما يفعل سفهاء كل عصر ونفايته . وإنما يبلغ الكتاب أجله ، وينفض العالم يديه من الحياة الدنيا ، ويحين زمن البعث العام ، ويكشف عن المنكرين الغطاء ، ويصير بصرهم حديداً . فثمة يتحقق لهم ما كان يتحقق للمؤمنين . وحينئذ يصمى أفدتهم الندم على إنكار الحقائق التى كانت تدعمها أدلة مادية ملموسة ، فأعماهم عن استكناهاها منازع الهوى وطغيان الأمانى الجسمانية ، ويشعرهم التسفيه والاستهزاء ، بحقارتهم ، بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعداً ، أكنتم أيها المجرمون على حق في زعمكم بعد ما تحققتم الآن من خطال إنكاركم : ويزيد في نفوسهم الخوف والزعزعة من العقاب الأليم الذى هم منه على رمية حجر .

شدة ندم المنذرين يوم القيامة ، وأسفهم على ما جنته أيديهم

وَوَضَعَ الْكِتَابَ فَرَى الْجَرْمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ، وَيَقُولُونَ  
يَا وَيْلَتَنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا  
أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا<sup>(١)</sup>

ومما يتماشى مع العقول أن يكون لكل إنسان سجلاً تحصى فيه حركاته  
وسكناته ، وهى العمل المادى ، ونظراته وألفاظه وهى مظهر الداخلى من  
معنوياته ، ولو لم يكشف كتاب الله عن هذه الحقيقة ، لكان محل تساؤل  
من العقلاء والمفكرين . لماذا أهملت الإشارة إلى هذا النظام ، مع لزومه  
لمقتضيات البداهة والزجر ، ولكن لما كان القرآن من لدن حكيم خبير ،  
كانت جميع آياته ظاهرة الصدق ، كريمة المعنى ، دقيقة البيان . فهى إما أن  
تقرر قاعدة تشريعية فى الأخلاق والعقيدة ، أو سياسة الاجتماع ، وإما أن  
توجه البصائر نحو المغيبات المرتبطة بكيان الإنسان ، فى حدود المعقول .  
كما تنطق الآيات التى نحن بصددتها فقد أخذ العالم الحديث بنظام الإحصاء ،  
فكل دولة تسجل رعاياها ذكوراً وإناثاً من اللحظة التى يولد فيها الذكر

(١) « و وضع الكتاب » أى وضع صحائف الأعمال . والمراد بوضعها إما وضعها فى  
أيدى أصحابها يميناً وشمالاً ، وإما فى الميزان . « فرى الجرمين » فاعلم ، فبدخل فيهم  
السفرة المنكرون للبعث دخولا أولاً « مشفقين » خائفين « مما فيه » من الجرائم والذنوب  
« ويقولون يا ويلتنا » منادين لهلكتهم التى هلكوها من بين الملوك ، مستدعين لها ليهلكوا ،  
ولا يروا هول ما لا قوة ، أى يا ويلتنا احضرى ، فهذا أوان حضورك « حاضراً » مسطوراً  
عتيداً . « ولا يظلم ربك أحداً » فيكتب ما لم يعمل من السيئات ، أو يزيد فى عقابه المستحق ،  
فيكون إظهاراً لمعدلة القلم الأزل .

والآثى ، فإذا شب أحدهما عن طوقه ، وسلك ميدان العمل ، تلقاه نظام تسجيل إنتاجه . فكيف تهمل السماء — وهى المهيمنة على شئون البشر — هذا الأمر مع ما فيه من حكمة ودقة ، تنفى مظنة الحيف والجور . ومن البديه بالضرورة أن المجرم قد يسقط فى يده حينما تعرض عليه أعماله ، أسوأ ما يكون الإجرام ، وأخبت ما تكون الآثام ، ولا يجد ما يدافع به عن نفسه ، كما يحدث ممن يرتكب فى الدنيا جرماً ، ويساق للحاكمه ، فإن وجيب قلبه يزيد كلما حان وقت الفصل ، ويدرك هول العقاب الذى تستأمله جريرته .

هذا ، ولما كانت جميع أعمال الإنسان من حركات ومسكنات وأقوال محصية مسجلة فهى التى ستنطق يوم القيامة بالحكم على صاحبها : إما بالسعادة التى لاضير فيها ، وإما بالشقاء الذى لا تمر به فترة صفو . ومن ثم فى هذا الموقف الرهيب تتقرر العدالة الحقة ، ويوضع الميزان بالقسط ، ويعلن الأمر الإلهى : لاظلم اليوم . ويقوم العباد بين يدى إله رحيم ، قال : مايفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم .

ومن ثم ينقسم العالم إلى أحدائنين : مناد يطير فرحاً وسعادة : «هاؤم اقرءوا كتابيه إنى ظننت أنى ملاق حساييه ، فهو فى عيشة راضية . . .» ويائس يتملكه الهول ، كان يرجو الفناء صارخاً ضارعاً «يا ليتنى لم أوت كتابيه . . . . خذوه فغلوه» .

إذن نخاتمة هذه الآية الشريفة التى تصف حالة العالم ، وقت القضاء العام فى يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون ، كان ختاماً حكماً دقيقاً ، يشفى صدور قوم مؤمنين «ولا يظلم ربك أحداً» أجل فإن الظلم شئ شئنة الآخرق العاجز أما رب الأرباب فتتزه وعلا ، وسبحان الذى أنزل على عبده الكتاب ، ولم يجعل له عوجاً قوماً .

رفع المكانة البشرية وعقاب الخارج على أوامر الله مهما كانت صفته وجنسيته

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ  
مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ <sup>(١)</sup>

هذا وإن من البديهيات المعترف بها اعترافاً عاماً أن الله جل شأنه قد خلق عناصر الكون ، جوية وأرضية وجميع الكائنات الحية الأخرى ، وهياها لتكون من وسائل بقاء النوع الإنساني الذي خصه الله سبحانه ، لتكون مظهر ربوبيته ، ومهبط وحيه ، ومجتملى أسرار وحدانيته ، لذلك كان الإنسان موضع التكريم والتعجيل ، لا في الأرض وحسب ، بل وفي السماء أيضاً ، وأعنى به الإنسان الذي برئت هيولته من غواشى الجحود ، وصنى قلبه من جوائح الشكوك والريب وهذبت نفسه وسمت عواطفه ، وانطبع في عقله كينونة الملأ الأعلى ، فعرف خالقه المتعال ، وتقرب منه قرباً يشع في مجاه نوراً متلاًئلاً ، ويبدو في غدواته وروحاته ورعا واستقامة ، ويرافقه في معيشتة الدنيوية زهداً وقناعة .

فقد عرفت تكريم البشرية في الأرض ، مما مربك من مثل أهل

(١) « اسجدوا لآدم » سجود تحية وتكريم .

« فسجدوا » - يماً امتثالاً للأمر .

« إلا إبليس » فانه لم يسجد ، بل أبى واستكبر .

« فسق عن أمر ربه » أى خرج عن طاعته ، أو صار فاسقاً كافراً بسبب أمر الله تعالى به

إذ لولاه لما أبى . والمراد بتذكير قصته ، تشديد التكبر على المتكبرين المفتخرين بأنسابهم

وأموالهم ، المستكبرين عن الانظام فى سلك فقراء المؤمنين ببيان أن ذلك من صنيع إبليس ،

وأنهم فى ذلك تابعون لتسويله .

الكهف . والمؤمن الفقير الذي فند مزاعم الكافر واغتراره ، فإذا قضينا  
مطاف الأرض ، وتطلعنا إلى السماء ، لألفينا تكريم النبوة ، وهي ما هي  
قرباً من الله ومثالا رفيعاً في التوحيد ، وشمساً وضاءة في الطاعة والعبادة ،  
ومعرفة شاملة لقوانين الإيمان ، والخلق ، وإماماً تاماً بدستور السماء .  
فقد أراد المولى عز وجل أن يكرم النبوة خاصة والإنسانية الطيبة الموحدة  
عامة في شخص أبي البشر سيدنا آدم عليه السلام . فأمر الملائكة بالسجود  
له ، رمزاً على رفعة البشر وعلو مقامهم . ولما كان الملائكة مفطورين على  
الطاعة ، لأن عنصرهم النوراني يخلو من عوامل الحسد أو التواني والتعاس  
في أمر الله . لبوا ساجدين . بيد أن إبليس ، وهو من عنصر نارى ،  
متمزج بالأرض ، فقد برزت في هيلته نزعات الحسد ، وطغت على مشاعره  
عواطف الكبرياء والغرور ، فلم يحجب داعى الله ، وخرج على التكليف  
الرباني ، قال « أسجد لبشر خلقتة من صلصال من حمأ مسنون » . إلى آيات  
لا تحصى ، وهي مجتمعة ترسم صورة ناطقة لأول مخالفة ، بل لأخبث معصية  
وجدت في العالم ، لذلك كان عقابه « أخرج منها مذموماً مدحوراً » —  
« لاملأن جهنم منك ومن تبعك منهم أجمعين » فأقصى من حظائر النورانية  
الطاهرة ، إلى عماية الظلمانية الشريرة . ولم تحميه جنسيته الجنية من عقاب  
الله سبحانه وتعالى ، وكيف يتأتى ذلك ، وجميع الخلائق بين يدى الله ضعافاً  
عاجزين لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا إلا ما أراده تعالى ، فلا الجن ،  
ولا الملائكة ولا الإنس ولا الخلائق الأخرى إلا عبيداً ، لا يستعصون على  
قضاء خالقهم كل حسب الدواعى التى يترتب عليها هذا القضاء .

تسفيه من يغتر بخيالات إبليس

أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي ، وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ  
لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا (١)

يستمر الإنسان في فسحة عن المؤاخذة طالما هو لم يلم بوجوده المعرفة  
من نافع وضار . فإذا علم ذلك ، وفتحت أمام عقله جميع مرامي التأمل ،  
والاستدلال ، فانه يقيد في هذه الحالة بالتكليف ، ويدخل في نطاق من  
نضجت إنسانيتهم ، واكتمل نموهم العقلي ، وتأهبوا للفهم والاستدلال .  
ومن يصل إلى هذا الطور كان غير خالق به أن ينزل عن مستواه ، إلى أحط  
ما يرتكس فيه الجاهلين الحق .

فقد بدأ إبليس بعداوة البشر ، واستكبر عن تكريم أبيهم ، زاعما أنه  
خير منه ولم يقنع بذلك ، بل ذهب إلى أبعد حدود الكيد والوقعة فأعلن  
حربا زعزعا على البشرية ، بأنه سيدنتهك حرمة من يقع في مخالفته ، ويحدو

(١) ( أفتتخذونه ) الخ ، فان الهمزة الانكار والتعجب ، والفاء للتعقيب ، أى أعقب  
علمكم بصدور تلك القبايح عنه تتخذونه ( وذريته ) أى أولاده وأتباعه ، جعلوا ذريته مجازاً  
قال قتادة : يتوالدون ، كما يتوالد بنو آدم ، وقيل : يدخل ذنبه في دبره ، فيبيض ، فتتفلق  
البيضة عن جماعة من الشياطين .

( أولياء من دوني ) فتستبدلونهم بي ، فتطيعونهم بدل طاعتي .

( وهم ) أى والحال ان إبليس وذريته

( لكم عدو ) أى اعداء ، كما في قوله تعالى : ( فانهم عدو لى إلا رب العالمين ) وقوله

تعالى : ( هم العدو ) وإنما فعل به ذلك تشبيهاً له بالصادر .



به إلى الهلاك « لاغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين » — « لأقعدن لهم صراطك المستقيم » .

فهل بعد أن يعلم الإنسان ذلك يليق به أن يتولى من صرح بعداوته ، وكشرله عن نابه وخصه بضراوته وشره ؟ حتى ولو عرض عليه ألوان اللذائذ وخيل له بأنواع المغريات . وإن سال على منها الذهب النضار ، وإن ابتسمت على حواشيها الورود النواضر ، والأقاحى الزواهر . وأى غباء يتصف به من يتولى عدواً أخبث عدو ، لا تتوقف ضراوته على زمن مخصوص ، وإنما هى مطلقة عامة تدور رحاها فى هذه الحياة الفانية ، وتظهر آثارها فى خلود الآخرة . وأى ظلم هذا الذى يزوج فيه الإنسان نفسه ، بما يرتضيه من مخالفة السنن العقلية ، وموالاته من كان يخلق به أن يكون أشد عداوة لهم ، منهم له ؟ !

تقرير أن كائناً من كان لا يطلع على غيب الله

---

مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ

---

وإن من أعجب العجب أن يتوهم بعض الحثالة أن للجن صلة بعالم الغيب . وقد نشأ هذا الوهم فى روعهم من اختفاء هذا العالم وراء آفاقه المقررة ، كما اختفى العالم الملائكى وراء آفاقه العليا ، وكل نوع مطلع على خفايا جنسه وشئونه اطلاعا يعلمه الله ، كاطلاع النوع الإنسانى على عالمه فى أقصى الأرض وأدناها ، ولم يطلع أحد من هذه العوالم ، وغيرها مما لا يعلمه إلا الله ، على ما عدا عالمه إلا بمشيئته تعالى ، ولمهمة ضرورية ، وبدافع من هذا الوهم زعم بعض الخياليين أن الجن أرواح شريرة لها قدرة التصرف

في إحالة الخير شراً ، كما زعموا أن الملائكة أرواح خيرية ، لها كذلك قدرة التصرف على إحالة الشر خيراً ، وفي الواقع فإن مهمة هذا أو ذاك تتركز في أن للجن نزغات فاجرة تقوم على رغبة أبيهم الشريرة في الانتقام من البشرية ، وأزهم بالمفاسد ، وذلك بكيفية يعلمها الله تعالى ، أو بواسطة الإيحاء النفساني ، والتخيل بالمغريات التي تزينت بها الحياة ابتلاء للعباد وتميزاً بين التقي والغوي . أما الملائكة فوظيفتهم الطاعة والعبادة ، وتأدية وحى الله فيما يصالح حال المجتمع الإنساني ، وماعدا ذلك فلا اطلاع لأحد على الغيب ، ولا قدرة له على هتك سدفه ، لأن المولى جل شأنه لم يخلق في عباده الاستعداد لهذا الأمر الخطير ، ولم هو سخي فاعتقاد كثير من السوقة في أن لأحد كائناً ما كان ، سواء كان من الجن أو الإنس أو الملائكة علم بالمستقبل ، أو معرفة بالغيب ، مع أنهم لم يشهدوا خلق السموات والأرض حتى ولا خلق بعضهم بعضاً ، وكيف يتأتى علم الغيب لمن لم تتوافر فيه شروط هذه المشاهدة .

تهجين من يصف الإله بصفات الحوادث

---

وَمَا كُنْتَ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عِصْدًا<sup>(١)</sup>

---

هذا ، وإن من خصائص الألوهية القدرة المطلقة ، والاستغناء الشامل ،

---

(١) (عصداً) في شأن الخلق ، أو في شأن من شئوني ، حتى يتوهم شركتهم في القول ، بناء على الشراكة في بعض أحكام الربوبية ، وفيه تهكم بهم ، وإيذان بكال ركافة عقولهم ، وسخافة آرائهم ، حيث لا يفهمون هذا الأمر الجلي الذي لا يكاد يشق عليه البله والصبيان ، فيحتاجون إلى التصريح به .

والانفراد بالخلق والإعدام . والهيمنة الكاملة على شئون المخلوقات من إنس وجن وملائكة ، وخلائق لا يحصيها إلا هو من كائنات حية ، وجمادات ونباتات ، الخ . ولم يؤثر قط لا بنص ديني ، ولا استنباط عقلي ، أن مخلوقا ما تصرف تصرفا إلهيا ، مما هو خارج عن سياج عبوديته الذليلة الخاضعة المحتاجة إلى مدبر حكيم ، وإن مما يشير الضحك والتندر اعتقاد كثير من الجهال بأن للشياطين تصرفا في الأكوان ، ودخلا في أحوال البشر ، وإذا جاز في منطق الافتراض الجدلي ذلك ، مع تجنبه للمعقول ، فهل يجوز أن يظفر بهذا المجد المؤثر ، مضل شرير ؟ لا جواب ، اللهم إلا نظرة تحقير ، وأسف أسيف .

عجز شركاء الكافرين وخرقهم

وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا<sup>(١)</sup>

فحينما ينضى عن الإنسان طور الطفولة ، وتطويه دائرة التكليف ، يلقي نفسه أمام دستور إلهي ، ينظم حياته الاجتماعية ، من ناحية كونه لبنة في كيان الجماعة الإنسانية ؛ وينظم عقيدته من ناحية كونه أحد أفراد الموحدين ؛

(١) « موبقاً » اسم مكان ، أو مصدر من وقى وبوقا ، كوثب وثوباً ، ووبق وبوقا ، كفرح وفرحاً ، إذا هلك ، أي مهلكا يشتركون فيه ، وهو النار ، أو عداوة هي في الشدة نفس الهلاك ، كقول عمر رضي الله عنه : لا يكن حبك كلفاً ، ولا بغضك تلفاً ، وقيل : البين الوصل ، أي وجعلنا تواصلهم في الدنيا ، هلاكاً في الآخرة ، ويجوز أن يكون المراد بالشركاء الملائكة ، وعزيراً ، وعيسى عليهم السلام ، ومريم ، وبالموبق البرزخ البعيد ، أي جعلنا بينهم بامداً بعيداً يهلك فيه الأشواط ، لفرط بعده ، لأنهم في قعر جهنم ، وهم في أعلى الجنان .

والأمر الأول مرتبط بالآخر . ولا يستقيم إلا داخل حدوده . لأن توحيد الله تعالى في الواقع هو الدعامة التي يرتكز عليها كل صالح ، وهو الباعث على كل فلاح ، والمنقذ من كل ضلال ، وأخيراً هو بمثابة الوقاية التي تحول بين الإنسانية وبين الارتطام بالشروخ والآثام مظالمها ، والإنسان كما علمت - أحداثين : مؤمن ، عاقل ، تنقذ في قلبه الحقائق الدنية ، فيتخذ من عبادة الله وحده ، ومن أوامره تعالى ونواهيه ، ربيئة تصد عنه تيارات الهوى والآثام . وهذا بطبيعة الحال ، قد ظفر برضوان مولاه ، وثوابه الجزيل . وإما كافر مستهتر ، يسعى في الأرض كالأفعى ، ينفث سموم الجرائم ، ويذر قتاد الفساد ، لا تسلك المواعظ إلى قلبه ، بل تصفق في أذنيه حبيماً لا يلبث أن ينحسر عنها ، وقد ردها وقر كثيف في أذنيه عن اتخاذ مجراها الطبيعي .

ولما كان الإنسان بحكم فطرته يشعر في أعماق نفسه بحنين إلى الاعتقاد في قوة خفية يكل إليها التصرف فيما يفاجئه من طوارئ الغيب ، فان نفس الكافر تسكن إلى ما يخيله له الوهم من الاعتقاد في الجن والأوثان وما إليها من معتقدات صيدانية مخزية ، طيلة حياته حتى تنقضي تحت كل هذا العبء الموقر ، فاذا حان زمن البعث ، وهلعت نفسه من هول الموقف وتاهت نظراته وجلا وزعراً ، يلتمس منقذاً ، ويفتش عن شافع ، ولما يرتد إليه طرفه خاسئاً حسيراً ، يذكر بالشركاء الذين أنساه الهول تذكرهم ولما كان شأنه ثم كالغريق ، يتعلق بما لا يجديه ، فسرعان ما يستصرخ متلهفاً ، بيد أن صياحه يذهب أدراج الرياح ، ولا يرجع إليه بطائل ، فتتضاعف حسرته ، ويتضخم الجزع في قلبه ، ويتخبط بين ولي أخرق ، وعذاب محقق

يأس المجرمين عن النجاة من النار

وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ ، فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا  
عَنْهَا مَصْرَفًا<sup>(١)</sup>

وبعد أن يقضى الله بين الخلائق ، ويتميز الخبيث من الطيب ، ويخطر  
المبشرون صوب الجنة يفيضون بشراً وسعادة . وفي هذا الوقت ذاته ،  
يُحْطَأُ المجرمون إلى النار ، أشقى ما يكونون ، وأضرع ما يكونون ، وأذل  
ما يكونون ، وقد فجعتهم الحسرة ، وضعضع الندم قواهم على إثارة حياة  
فانية خلفوها وراءهم بطمها ورمها ، بملاهيها ومبازلها ، وكانت هدفهم  
الأقصى في البقاء ، مع كثرة ما أقامته السماء من براهين على زوالها ، والترفع  
عن الاغترار ببريقها ، وكثرة ماقررتة من أن الانحراف من جادة الاستقامة  
يترتب عليه سواء السعير ، وأن الآخرة خير وأبقى ، فقابلوا ذلك بالإنكار  
والجحود ، وعكسوا أوامر الله نواهي ، ونواهيه أوامر ، تنفتح قلوبهم  
لفزرة الدنيا ، بينما تنغلق عن توجيهات الإسلام ، حتى إذا ظهر لهم خطل  
ما كانوا يضطربون فيه ، ويشجبهم نعيقه ، وينكشف لهم في حاضر الآخرة  
حينذاك ، ما كان يخيل إليهم أنها أسطورة ، فأنكروا مستقبلها في حاضر  
الدنيا ، أيقنوا بالثبور ، الذي لامصرف لهم عنه : لآمال ، ولاجاء ،

(١) « فظنوا » أى فأيقنوا « أنهم مواقعوها » مخالطوها ، واقعون فيها ، أو ظنوا  
إذ رأوها من مكان بعيد أنهم مواقعوها الساعة . « ولم يجدوا عنها مصرفاً » انصرفاً ،  
أو معدلاً ينصرفون إليه .

ولا سلطان ، ولا أولياء ، ولا أبناء ، ولا آباء . يوم يتولى الكافر باليتنى كنت تراباً ، كحالتى قبل التكوين ، أى مهيناً تطؤه النعال على أن يغمس فى الجحيم الفائز غمسة واحدة ، ولكن أنى يتحقق له هذا الأمل ؟

شمول القرآن على جميع شؤون العالم

---

## وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ (١)

---

سبق آنفاً أن أشرنا إلى ما اشتمل عليه كتاب الله من علوم ومعارف يستقى منها العلماء والأدباء والمصلحون ما يحتاجون إليه فى تنظيم شؤون المجتمع ، وسياسته سياسة حكيمة رشيدة . وإذا كان المقام يقتضينا العود إلى التحدث عما لهذا الكتاب الكريم من آفاق واسعة يجد فيها الباحث مادة لما يتطلع إليه ، فما ذلك إلا أثراً من آثار عظمة القرآن ، وأنه من لدن عالم الغيب والشهادة .

ولا ريب فى أن العالم لن يبلغ ركنه ضفاف السلامة والنجاة ، حتى يخلع عنه هذه المادية الجارفة التى اكتسحته أخيراً نتيجة انغماسه فى حمأة الدنيا ، وتركيز جهوده ومساعيه من أجلها ، والتفنن فى زخرفها ؛ ويريم صوب القرآن الكريم يتفياً ظلال هديه ، ويستصبح بسناه ، ويتخذ من قوانينه عصمة له عما يصادفه فى حياته من مشاكل معقدة ، لاسبيل للعقل

---

(١) « ولقد صرّفنا » أى كررنا ، وأوردنا على وجوه كثيرة من النظم « فى هذا القرآن للناس » لمصلحتهم ومنفعتهم « من كل مثل » من جملة ما مر من مثل الرجلين ، ومثل الحياة الدنيا ، أو من كل نوع من أنواع المعانى البديعة الداعية إلى الإيمان ، التى هى فى الغرابة والحسن ، واستجلاب النفس كالمثل ، ليتلقوه بالقبول ، فلم يفعلوا .

البشرى إلى حلها خارج نطاق هدى السماء ، ولا بد للعالم من الرجوع إليه  
آخر الأمر ، مهما شطّحت به الغواية ، فستدهده الشرور قواه ، وتمنح  
عظامه ، وتهدم كيانه ، ثم لا يجد مفرّاً من الاتجاه إلى حمائه ، والتطامن  
لحكمه ، رضى أو لم يرض ، طال الزمان أو قصر .

مكابرة الإنسان وجدله في الحقائق الواضحة

---

## وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا<sup>(١)</sup>

---

وإن من عجيب أمر الإنسان أنه رغم ما أتيج له من عقل يستطيع أن  
يزن به كل ما يعرض عليه من أمور تحتاج إلى العقل ، ورغم ما منحه من  
ملكات التفكير والتروى ، وتخليص الحق من الباطل ، فإنه يقف في كثير  
من الحقائق موقف بلاهة وعته ، وليس به شيء من البلاهة والعته ، وإنما  
غرور النزق ، وهوس الهوى ، دفعه دفعاً لأن يكابر فيما لا مكابرة فيه ،  
وأن يتخذ الباطل وسيلة في طمس معالم الحق ، ويجرد من لسنه سلاحاً  
يشهره في وجه من يفصح له عن اليقين ، وذلك تمشياً مع هواه ، كيلا يحول  
بينه حائل من رشاد ؛ والإنسان وحده من بين جميع الخلائق هو الذى  
وصمته هذه المذمة ، ولو أنه قدر قيمته كإنسان جعله الله محوراً للحياة ،  
لأنف عما لا يليق به ، ولسلك طريقاً آخر من التبصر والهدى ؛  
والرجوع إلى الحق .

---

(١) « وكان الانسان » بحسب جيلته « أكثر شيء جدلاً » أى أكثر الأشياء  
التي يتأنى منها الجدل ، وهو هنا شدة الخصومة بالباطل والمهارة ، من الجدل الذى هو القتل  
والمجادلة الملاواة ، لأن كلا من المجادلين ينتوى على صاحبه .

تقرير أن كثيراً من الناس لا تكتفى الأدلة في إقناعهم ، حتى يروا العذاب

وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى ، وَيَسْتَغْفِرُوا  
رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا<sup>(١)</sup>

فلما نطق القرآن الكريم بأدلة اليقين ، في أسلوب جنى مبین ، لوى أعناق العباقرة ، وقسره على الإقرار ببعده عن المظنة البشرية . حتى لقد اجتذب إلى هديه قروم العرب ، مع شدة تخرجهم عن نقض ما ألفوه من عادات ، وما درجوا عليه من تقاليد ، حتى ليؤثر أن العربي الصميم ، يهرأ جسمه ، ولا يتسامح في إفلات ماعقد العزم على التمسك به ، فلما تلى القرآن على أسماعهم ، وهم أعرف الناس بشجون اللغة ، وشعابها ، وطرائق فنونها ، ومرامها وأغراضها ، هفت نفوسهم إليه ، وآمنوا إيماناً مصدره العلم والافتناع ، بأن السماء قررت وضع حد للفوضى التي اختلجت فيها الإنسانية ، وتحققوا من دعوته الكريمة الجدية ، بأنه أصبح لا مجال بعد للعبث والهزل ،

(١) « وما منع الناس » أى أهل مكة الذين حكيت أباطيلهم . « أن يؤمنوا » من أن يؤمنوا بالله تعالى ، ويتركوا ما هم فيه من الاشراك « إذ جاءهم الهدى » أى القرآن العظيم الهادى إلى الايمان بما فيه من فنون المعاني الموجبة له « ويستغفروا ربهم » عما فرط منهم من أنواع الذنوب التي من جملتها مجادلهم للحق بالباطل . « إلا أن تأتيتهم سنة الأولين » أى لا طلب إتيان سنتهم ، أو لا انتظار إتيانها أو لا تقديره . وسنتهم الاستئصال . « أو يأتيتهم العذاب » أى عذاب الآخرة « قبلاً » أى أنواعاً ، جمع قبيل ، أو عياناً ، كما في قراءة قبلاً - بكسر الفاف ، وفتح الباء ، وفري . بفتحين ، أى مستقبلاً . يقال : نقيته قبلاً ، وقبل ، وقبل ، والمعنى أن ما تضمنه القرآن الكريم من الأمور المستوجبة للايمان بحيث لو لم يكن مثل هذه الحكمة القوية ، لما امتنع الناس من الايمان ، وإن كانوا مجبولين على الجدل المفرط .



وأن من رغب في الرفعة والسمو ، فلا يرضخ لإرشاداته ، وسرعان ما أسلسوا قيادهم لتعاليمه التي وجهتهم إلى زعامة العالم ، واقترن ذكرهم بالرهبة والجلال . والأدلة متوافرة على إثبات المؤمن عقيدته . وتعلق قلبه بالوحدانية الخالصة التي استقهاها من القرآن ، على ما يناله من آلام جسمانية في سبيل عقيدته . فكان العربي المؤمن يحرد من ثيابه ، ويلقى في ضاحية الشمس مكبلاً عرباناً ، وجزيرة العرب - عرضة لحرارة الشمس المحرقة ، لطبيعة موقعها الجغرافي ، وهو مع ذلك ، لا يفتأ يسبح « أحد - أحد » وحدانية وحسب لا شركاء كما يهرف المأفونين ، فيوغر صدر مولاه ، ولا يجد حيلة يزهبه بها على كثرة ما جربه من ألوان العقاب والتعذيب . ولكنه الإيمان وليد المعرفة والافتناع ، لا تؤثر فيه الزوابع ، ولا تزعره الأنواء والصواعق .

فهل يليق بعقل أن ينحرف عن هذا الهدى الواضح ، ويلج مع المنذرين في عمياتهم حتى يفجأه عقاب السماء الذي فاجأ من سبته ، فيما غبر من أمم وأجبال ؟

مهمة رسل الله ، والمقصود ببعثهم

---

## وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ (١)

---

تستفتح هذه السورة الشريفة - كما علمت - بالمهمة الخطيرة التي نيّمت بالرسول الأمين ﷺ ، وهي : إنذار الآئمين بما هم عرضة له دائماً من عقاب صارم ، وأهوال ساحقة ، في الدنيا والآخرة ، وبشارة المؤمنين في الدنيا

---

(١) « وما نرسل المرسلين » إلى الأمم ، متلبين بحال من الأحوال . « لا » حال كونهم « مبشرين » للمؤمنين بالثواب « ومنذرين » للكفرة والمعصاة بالعقاب .

بحمية الله ورضوانه ، وفي العقبي بالنعيم الرفه في خلود الآخرة ، وتتابع الآيات تفصل حقيقة الفريقين ، والآثار المترتبة على سلوك كل منهما ، سواء من ناحية العمل ، أو غايته المحتومة ، تفصيلاً دقيقاً جلياً لا لبس فيه ولا إبهام ، وإنه من الوضوح بحيث لا يتجادل فيه إلا المتعنتين ، ذوى الأغراض الخبيثة ، الأشرار اللثام ، فإذا انتهت إلى نقطة معينة ، بعد عرض قصة فتية بررة أظهار ، وما قام بينهم وبين أهل جيلهم من صراع جبار ، بين تخضيد شوكة الإيمان ، وبين الاستهزاء بالكفر ، ولا إخالك وقد تلوت « فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر » وطعمت مغذاها الجليل وهي تحض على الإيمان كما لم يحض عليه صمصام يستله كى ، وتحذر من الكفر كما لم يحذره زاجر ، تبين الرشد من الغي ، فليسلك منكم ما يهوى ، وتأخذ الآيات في تعريف نهاية كل من الفريقين ، وفيما بين ذلك تميل إلى الدنيا فتهيل عمارتها وزينتها ، كنبات اجترفه السيل ، فاستحال إلى هشيم تذروه الرياح . وبعد استقامة هذه الصورة ، وتركيزها في الأذهان ، على ما انطوت عليه الصحف السالفة ، ليقلع الغواة عن الحكم على أنفسهم بشقاء الأبد ، ويطمئن التقاة بما تهيأ لهم من سعادة وإعزاز . ومن ثم تنتهى مهمة الرسل ، وهي التبشير والإنذار وحسب ، أما ما وراء ذلك فمن خصائص الألوهية القادرة . فالرشيد الكيس هو الذى يتدبر هذه المعانى الثمينة . ويكون نفسه عن طريقها تكويناً دينياً ، يخلو عن هذه المهازل التى يجمع اليها هؤلاء الذين عضوا بنواجذهم على عبث الجرائم الخلقية والاجتماعية ، ويحيا حياته إرهابياً شريعياً ، يزعج أبناء وطنه بجرائمه وآثامه ، سعياً وراء لذة عجلي ، أو رغبة فاجرة .

## اعتقاد الكفار على الباطل في محاربة الحق

### وَيَجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ (١)

فقد يحرص الكافر ، أو بعبارة أخرى ، المنذر على التستر بمغالطات لا تركز على أساس من عقل أو منطق ، ولا تدعمها الوقائع المادية ، في الوقوف أمام دعوات الهداية والرشاد . وذلك تمشياً مع رغباته في استيعاب الهويات الآئمة التي تنبؤ به دائماً عن جادة الاستقامة والصواب . فيتخذ من الحجاج والباطل ، والنقاش الأجوف مجالا يسكب فيه عصارة خيالاته ، كي يجد الوسائل التي يستتر خلفها الصغار الذي يلاحقه ، حينما يحجب الكمال الإنساني ، القائم على الفضائل والأخلاق ، تلك التي كشف عنها القرآن ، وأبرز معالمها .

وإن دل ذلك على شيء ، فإنما يدل على مدى الانحطاط الخلق والاجتماعي الذي انحدر إليه المنذرون ، نتيجة تخبطهم حدود الله ، ومجاوزتهم أوامره الحكيمة ، واستسلامهم لتيارات المغريات الدنيوية ، والانصياع للنزوات البهيمية ، انصياعاً أملى عليهم أساليب الباطل ، في عبارات ، وإن كانت موضع استنكار ضمائرهم ، إلا أن نفوسهم الشريرة تسكن إلى بريقها ، بل ويذهبون إلى أبعد من ذلك فيتوهمون أنهم أسكتوا صوت الحق ، ودحضوا براهينه . بيد أن الحق أمتع من أن تصل إليه سهامهم ، أو ينال

(١) « ويجادل الذين كفروا بالباطل » باقتراح الآيات بعد ظهور المعجزات ، والدوال عن قصة أصحاب الكهف ونحوها تعني « ليدحضوا به » أي بالجدال « الحق » أي يزيلوه عن مركزه ويظلموه ، من إدحاض القدم ، وهو إزلاقها ، وهو قولهم لأرسل عليهم الصلاة والسلام : « ما أنتم إلا بشر مثلنا ، ولو شاء الله لآنزل ملائكة » ، ونحوها .

منه عحيجهم . ولا يابث قائماً يحدو بالمؤمنين إلى المعرفة والسعادة ، ويقذف  
بالكافرين الأشرار من حائق ، فيذقوا وبال أمرهم . وما اجتروا على الحق  
من باطل موء ركيك .

إمعان الكفار في جهالتهم ، والاستهزاء بآيات الله ونذره

---

### وَاتَّخَذُوا آيَاتِي ، وَمَا أَنْذَرُوا هُزُوًّا<sup>(١)</sup>

---

ولم يقف الكفار عند حد الجدال الباطل ، في مغالبة الحق وطمسه ،  
لتفريج أمامهم فجاج الملهو واللعب ، ولـكنهم إلى جانب ذلك فقد انماعوا  
في عماية الضلال ، وخبث الطباع ، وقابلوا القوانين الربانية بالإهمال والتمرد  
وأرخی لهم انبساط الرزق ، وفسحة الأمل ، حبائل الركون إلى ما ألفوه  
ولم يكلفوا أنفسهم الالتفات للخلف ، وإلقاء نظرة عابرة على الماضي البعيد  
أو القريب ، ليستخلصوا العبر من ماجريات القدر ، والعقاب الملاحق الذي  
حطم أما كانت أوسع آمالا في الحياة ، وأنبغ فنا في تجميلها ، وأطول  
باعا في عمارتها ، وكيف كان عاقبة استهزائهم بنذر السماء ، كما لم يكلفوا  
أنفسهم تخلي دورة الحاضر ، لينظروا ماذا يخبئه المستقبل الذي يستحث  
خطواتهم إليه كر الغداة والعشى ، فيما حذرهم منه كتاب الله ، ولـكنهم لم  
يفعلوا هذا ولاذاك ، وأطلقوا لمشتياتهم العنان ، فوثقوا بالدنيا ، وأولوها  
عنايتهم واهتمامهم ، وجهدوا في سد الذرائع التي تحيل صباغها ، كيلا تتأثر

---

(٢) « واتخذوا آياتي » التي تحرلها صم الجبال « وما أنذروا » أي أنذروه من  
الفواعل الناعية عليهم العقاب والعذاب ، أو إنذارهم « هزوا » استهزاء ، وقرىء بكون  
الزاي ، وهو ما يستهزأ به .

قلوبهم ينصول خضابها الكاذب ، ويقسرهم ذلك على الاسترابة فيها ،  
والاقتناع بالدين ، وما أنذر به المجرمين من عقاب تتمثل فيه أبشع ألوان  
الذل والمهانة عاجلا وآجلا .

ظلم من يعرض عن آيات ربه ، وينسى ما أسلف من شرور

---

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَكَرَ بآيَاتِ رَبِّهِ ، فَأَعْرَضَ عَنْهَا ، وَنَسِيَ  
مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ

---

اجلس أنى شئت إلى كتاب الله ، وتدبر أية آية تصادفك في أعلى صحفه  
أو وسطها أو عقبها ، فستنقطع أنفاسك لدى قداستها ، وستملى عليك  
سياسة الجسم والروح الفردى ، وسياسة المعاملة والاندماج الاجتماعى ،  
وسياسة الوحدة والايمان الاعتقادى ، وكل ذلك مجتمعاً يربى لاحتالة  
فى النفس عاطفة الخير ، وينمى ملكات الفضيلة ، ويعصم الإنسان عن  
التفريط فيما يلزمه المحافظة عليه ، ولقد ألمنا آثفا ، بما يحنيه المرء على نفسه  
من ظلمها بهجر أركان الدين ، والانطراح تحت أنقاض الدنيا ، وفى الواقع  
أى ظلم سحيق ، يزجى إليه نفسه ، هذا الذى يجذب يده عن سيرافقه إلى  
أعلامنازل البررة التقاة ، المفتحة لهم أبواب الجنان يدخلون من أيها شاءوا  
ويمدها لمن سيجره إلى هدم كيانه ، وفقد اعتباره ، ونبذه فى سواء السعير  
ومن البديه فقد يسوق ذلك إلى إلباس القبيح ثوب الحسن ، والتوغل فى  
أحراش الجرائم ، وإهمال التفكير فى تبعاتها الجسام .  
فقد حلل القرآن الكريم نفسية من نبذوا آيات ربهم ظهرياً ، تحليلاً

كشف عما انتهوا إليه من تفكك أواصرهم الخلقية والأدبية ، وانحلال مقوماتهم الدينية ، وتهتك عواطفهم الإنسانية ، وكانوا ضواري في قوام بشرى ، وشروء في أجرام متحركة ، وقابلها من الناحية الأخرى بتحليل نفسية من عضوا بنوا جذهم على اتباع تعاليم خالقهم ، أى يذكر القرآن المرء بآيات ربه ليسموا ، فيعرض عنها الشقى ، ويأبى إلا أن ينحط إلى حضيض السوائم وبئس ما ارتضاه لنفسه بديلا ، وساءت عقباه .

الحوائل التى تشل عقول الظالمين عن استشراف الهدى

---

إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ ، وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا (١)

---

ليس هذا افتراض منطقي ، أو تخيل لفظي ، وإنما هو تشخيص حالة قائمة بنفوس المندرين ، يشبه حالات مرض عضال ، حارت فيه نطس الأطباء ومن المحقق أن الكفر داء وبيل أول ما تظهر إصابته بالعقائد - وهى ملاك المقومات الإنسانية - فتدويها ، وبذلك تنهار بقية المعنويات الأخرى من تلقاء نفسها ، كتلك الأدوية الجسدية ، متى ساورت ميكروباتها عضوا تخاذلت بقية الأعضاء ، وتداعت له بالخمى والسهر ، ومن الحكمة الإلهية فى التركيب الإنسانى أن الأدوية المعنوية ، يتأثر بها الجسم ، وتكون باعثا على إدراثة ، كأن يزنى الزانى مثلا ، فيداء بمرض تناسلى خبيث ، أو يسرق

---

(١) « إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً » أغطية كثيرة ، جمع كان ، وهو تعليل لأعراضهم ونسيانهم بأنهم مطبوع على قلوبهم « أَنْ يَفْقَهُوهُ » أى منعناهم ان يفقهوا على كنهه - او كراهة ان يفقهوه ، « وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا » أى جعلنا فيها ثقلا يمنعهم عن استماعه .